Tome, année No 940

Le Caire 9 — 7 — 1951

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٩٤٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٥ شوال سنة ١٣٧٠ — ٩ يوليه سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

كشف أدبى مهم :

ترجمتان لقصة « المعراج »

إحداهما لاتينية والأخرى فرنسية

المستشرق الايطالى أمبرتو ريزيتانو
الأستاذ بجامعة فؤاد الأول

من المعروف أن دانتى ألجييرى شاعر إيطاليا المعظم الذى عاش فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر — قد وضع ملحمة فذة هى « الكوميديا الإلهية » التى تعتبر أنضج ثمار الآداب الإيطالية ، ولعلها أسمى تحفة فنية ظهرت حتى الآن . وقد ترجمت الكوميديا الإلهية إلى جميع لغات العالم ، كما نقلت نثرا إلى اللغة العربية ، أو بالأحرى لخصت فى هذه الترجمة العربية رحلة دانتى إلى الجحيم والأعراف والجنة

وكثيرا ما نقب العلماء والباحثون أثناء القرن الماضى عن المصادر التى استقى منها دانتى فكرته فى وضع الكوميديا . وطالما تساءل المهتمون بالدراسات الخاصة بالشاعر الإيطالى ومعاصريه من الكتاب عما إذا كانت فكرة دانتى فى ملحمته مبتكرة أو مقتبسة . ولقد مضت على ذلك سنوات دون أن يتقدم هذا البحث تقدما مرضيا ، ودون أن يتعدى الأمر مرحلة الترجيح . وذلك لأن الباحثين لم يكن فى استطاعتهم أن يحصلوا على البراهين القاطعة فى هذا الموضوع . أما فى أوائل القرن العشرين فقد تطورت الأبحاث الخاصة بالمصادر التى استقى منها دانتى فكرته ، وتمت بفضل مجهودات المستشرق الأسبانى آسين بلاثيوس الذى أخرج إلى الناس فى سنة ١٩١٩ بحثا قيما عنوانه : —

La escatologia musulmana en la Divina Comedia

أى « العقيدة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية » فلما ظهر هذا البحث كان له وقع عظيم فى نفوس المهتمين بالدراسات الدانتية ، ولا سيما أولئك الذين لا يشكون فى أصالة فكرة الشاعر الإيطالى . ولقد امتاز بلاثيوس فى هذا المؤلف بدقة التحليل والتعليل على عادته فى كل ما بحثه وكتبه أثناء حياته من البحوث العلمية الخاصة بالاستشراق . وكان بلاثيوس يعتمد فى بحثه هذا على تبحره فى دراسة الفلسفة العربية والعقيدة الإسلامية ، وبصفة خاصة على إلمامه الوافى بكل ما يخص النشاط العلمى والثقافى فى بلاد الأندلس فى الوقت الذى التقى فيه الشرق الإسلامى والغرب المسيحى التقاء أدى إلى ازدهار رائع فى الآداب والفنون والعلوم

هذا وقد أشار بلاثيوس فى مؤلفه إلى ما بين الكوميديا الإلهية والعقيدة الإسلامية الخاصة بالبعث والقيامة وخلود النفس من تشابه وتقارب ، كما أشار إلى كل ما فى الكوميديا الإلهية من صلة بالحديث المعروف عن قصة « المعراج »

أشار بلاثيوس إلى هذا كله إشارة وافية . ومن فرط افتتانه بالموضوع الذى استهواه وتملكه نسب إلهام دانتى فى وضع منظومته الخالدة إلى المفكر الصوفى ابن عربى الأندلسى الذى عاش فى القرن الثالث عشر . وسرعان ما استفاض الحديث عن هذا البحث واتجهت إليه أنظار المهتمين بالموضوع الذين انقسموا كما هى العادة فى مثل هذه الظروف إلى فريقين : فريق أيد نظرية بلاثيوس وفريق عارضها ، وظل الفريق المعارض غير مقتنع

باستنتاج الباحث الأسبانى القدير على دقتها ولا موافق على آرائه بالرغم من دلالتها على علمه المتين وثقافته الرصينة . والواقع أن بحث بلاثيوس كان يضعفه عدم الإشارة إلى السبل التى وصلت منها الأفكار الإسلامية إلى دانتى ، وذلك لانقطاع الصلة المباشرة بينه وبينها ، وكان الأولى أن يشير بلاثيوس إلى تلك النصوص الإسلامية الأصلية أو الترجمة التى لابد أن يكون دانتى قد اطلع عليها قبل وضع منظومته إذا صح أنه استلهمها من العالم العربى الإسلامى كما أكد بلاثيوس . وبعد معركة حامية بين الفريقين المؤيدين والمعارضين لكثرة ما أثاره هذا البحث من اختلاف الآراء وافتراق الأهواء ؛ خيم السكون على هذا الموضوع مدة من الزمن دون أن يصل الفريقان إلى تسوية ما بينهما من اختلاف، ودون أن يقتنع فريق برأى الفريق الآخر

ظلت الأمور على هذه الحال حتى نشر المستشرق الإيطالى مونيرى دى فيليار فى عام ١٩٤٤ مؤلفا هاما عن دراسة الإسلام فى أوروبا أثناء القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ولفت واضعه أنظار الباحثين إلى مخطوطين : أولهما مكتوب باللغة الفرنسية ومودع بمكتبة أكسفورد، والآخر مكتوب باللغة اللاتينية ملك المكتبة الأهلية بباريس، وكلاهما يشتمل على ترجمتين غربيتين لقصة المعراج كما رواها أهل الحديث. وافترض المستشرق الإيطالى إذ ذاك أن الترجمتين أصلهما واحد وجاء من بعده المستشرق الإيطالى تشيرولى ودرس المخطوطين وسرعان ما أثبت بطريقة لا تحتمل الشك صدق نظرية « مونيرى » وقد نشر أخيرا هذين المخطوطين وأضاف إليهما كل ما استطاع إضافته من المقدمات والحواشى والتفسيرات لتوضيح المسألة التى كانت موضع الخلاف

أما المخطوط المشتمل على الترجمة اللاتينية فعنوانه
liber scalae Machometi
وأما المخطوط الفرنسى فعنوانه livre de l'Eschiele Mahomet
ومعناها « كتاب معراج محمد » وهو مؤلف غفل لم يعرف واضعه الآن، ترجم أولا من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية (نسبة إلى قشتالة) من لغات أسبانيا ، وكان الذى قام بترجمته هو « إبراهيم المقيم اليهودى » الذى كان طبيبا ببلاط الملك الصالح الأسبانى ، كما نقله فيما بعد من هذه اللغة إلى اللغتين المذكورتين آنفا الكاتب الإيطالى. بونافنتورا داسيينا الذى كان سكرتيرا ببلاط الملك السالف الذكر فى منتصف القرن الثالث عشر

وبالرغم من أن المترجم الإيطالى قد اعتمد فى نقله إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية على الترجمة القشتالية لا على النص الأصلى؛ فإن كل ما فى المخطوطين اللذين قام تشيرولى بنشرهما، من المصطلحات والعبارات والتراكيب والأسلوب يدل دلالة قاطعة على أن النص الأصلى إنما هو نص عربى، كما يدل أيضا على عروبته أسماء الأماكن وأسماء الأعلام وذكر الآيات القرآنية الكريمة الواردة فيهما . ولولا ذلك لما ذكر المترجم الإيطالى بونافنتورا داسيينا جملا عربية كاملة مكتوبة بالأحرف اللاتينية؛ فى إمكان القارئ الملم بلغة الضاد أن يعيدها إلى أصلها العربى بكل سهولة مهما طرأ عليها من التحريف. ولكن ماذا يا ترى يكون ذلك النص العربى المجهول ؟ ومتى ألف ؟ وأين ؟ ومن عساه أن يكون مؤلفه ؟

يمكننا بالرغم من عدم استطاعتنا الإجابة عن هذه الأسئلة كلها — أن نثبت على الأقل أن المصدر العربى الذى استقيت منه الترجمات الثلاث لابد أن يكون كتابا عربيا يشتمل على قصة المعراج كما كانت تروى فى بلاد الأندلس فى القرن الثالث عشر . وبمجرد أن تراءى إلى سمع الملك ألفونس المذكور وجود قصة طريفة من هذا النوع أمر بترجمتها حتى يستطيع علماء الغرب أن يطلعوا عليها

هذا وقد يتساءل الباحث عما إذا كانت ترجمة من هذه التراجم الثلاث كانت معروفة فى إيطاليا أثناء القرون الوسطى ؟ والإجابة فى هذه المرة لابد أن تكون بالإيجاب ؛ إذ ورد ذكر هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج فى مؤلفين من مؤلفات كاتبين إيطاليين ، عاش أحدهما فى منتصف القرن الرابع عشر وعاش الآخر فى أواخر القرن الخامس عشر، وليس هذا إلا دليلا على انتشار المعلومات عن العقائد الإسلامية وفلسفة العرب فى بلاد أوروبا ولا سيما فى إيطاليا فى القرون الوسطى . هذا ولم يقتصر المستشرق تشيرولى على نشر الترجمتين الفرنسية واللاتينية ؛ وعلى ملخص الترجمة القشتالية فحسب، بل أضاف إلى ذلك قسما آخر يبرهن على هذا الذيوع ، كما أضاف قسما ثالثا جمع فيه كل الشواهد التى تثبت هذا الانتشار ، وعلى رأسها حوار جرى بين النبى محمد (ص) وعبد الله بن سلام اليهودى، ترجمه إلى اللاتينية أرمانو الدلماطى سنة ١١٤١ — نقلا عن الكتاب المعروف باسم «درر الكلام فى مسائل عبدالله بن سلام»

البقية على صفحة ٧٩٧

في دنيا الشعراء

من وحي العيد

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

من الناس فئة وهبها الله خيالا خصبا وقادا، وعاطفة مشبوبة، وحسا مرهفا دقيقا، وشعورا فياضا رقيقا، هؤلاء هم الشعراء المطبوعون الذين مازهم الله عن غيرهم بالقدرة على رسم الصور وتصوير ما يجول بخاطرهم وما يعتمل في قرارة نفوسهم من مشاعر وأحاسيس، بخلاف الإنسان العادي الذي يحس الألم ويجد الحزن، ويشعر بالسرور ويتذوق اللذة، ولكنه يعجز عن التعبير عن شيء من ذلك

بل إن الشاعر المطبوع يمتاز بالقدرة على النفاذ إلى أغوار النفس البشرية، وإلى قرارة ما في الكون من حقائق لا يستطيع إدراك أسرارها غيره ممن لم يوهبوا موهبته

لذلك تراهم لا تمر بهم حادثة أو مناسبة إلا سجلوها في شعر يعبرون فيه عما لهذه أو تلك من أثر في نفوسهم، بل وفي نفوس الشعوب التي ينتسبون إليها

ولما كان عيد الفطر من المناسبات الهامة، فقد اهتم به الشعراء منذ فجر الإسلام، فاتخذوه وسيلة لإزجاء مدائحهم للخلفاء والأمراء وغيرهم ممن بيدهم السلطان، ولكنهم لم يهتموا بتصوير ما يعتلج في نفوسهم من خواطر، وما تجيش به عواطف شعوبهم وما يعتمل فيها من أحاسيس، بل كان همهم الأول التقرب من الممدوح للوصول إلى ما يريدون من إجزال العطاء وحلول المنزلة الأولى لديه

فها هو ذا موكب الخليفة المتوكل قد انتظم في يوم عيد الفطر للخروج لصلاة العيد، فتأخذ البحتري الشاعر روعة المنظر وعظم المناسبة، فيقول مادحا المتوكل، واصفا الموكب في قصيدة عامرة بليغة تعد من غرر الشعر أو من عرائسه التي يفخر بها. فيقول:

بالبر صمت وأنت أفضل صائم   وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عيدا إنه   يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بجحفل   لجب، يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت   عددا يسير بها العديد الأكثر
فالخيل تصهل، والفوارس تدعي   والبيض تلمع، والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها   والجو معتكر الجوانب أغبر

• • •

ذكروا بطلعتك النبي، فهللوا   لما طلعت من الصفوف، وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسا   نور الهدى، يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع   لله لا يزهى، ولا يتكبر
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما   في وسعه لسعى إليك المنبر

وهذا هو ابن هانئ الأندلسي يمدح المعز لدين الله الفاطمي ويهنئه بشهر الصيام والعيد، وهو كعهدنا به قوة أسلوب ومبالغة في المدح تصل إلى حد الإسراف الممقوت الذي يخرج عن حدود الاعتدال، فيقول:

جود كأن اليم فيه نفاثة   وكأنما الدنيا عليه غثاء
ملك إذا نطقت علاه بمدحه   خرس الوفود وأفحم الخطباء
هو علة الدنيا ومن خلقت له   ولعلة ما كانت الأشياء
ليست سماء الله ما ترونها   لكن أرضا تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره   وأطاعه الإصباح والإمساء

أرأيت كيف يسمو الشاعر بالخليفة إلى مرتبة الألوهية وهو الذي يقول في غير هذا المكان:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

ولا أظنك قائلا إنه يشير إلى نظرية الفلسفة الإسلامية التي تعرف الله سبحانه وتعالى واجب الوجود بعلة العلل. ثم كيف يشبهه بالنبي في وقعة بدر إذ نصره الله بالملائكة في قوله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)

ثم يتابع الشاعر المدح فيقول:

يفديك شهر صيامنا وقيامنا   ثم الشهور له بذاك فداء
فيه تنزل كل وحي منزل   فلأهل بيت الوحي فيه ثناء

فتطول فيه أكف آل محمد — وتقل فيه عن الندى الطلقاء
ما زلت تقضى فرضه وأمامه — ووراءه لك نائل وحباء
حتى يعدك فيه ذخرا أنه — للنسك عند الناسكين كفاء

وهذا مهيار الديلمى يكتب إلى أبى الحسين أحمد بن عبد الله الكاتب مستوحشا لبعده متشوقا للقائه، مهنئا بالصوم والعيد، من قصيدة طويلة بالغ فيها الشاعر فى مدح صاحبها ولكنها على رغم ذلك فيها فن جميل وخيال بديع والتفاتات بارعة لطيفة فيقول:

فلله أنت ابن نفس سمت — لغاياتها قبل أن تولدا
إذا خير اختار إحدى اثنتـ — ين إما العلاء وإما الردى
كأنى أراك وقد زاحموا — بك الشمس إذ عزلوا الفرقدا
وخاطوا النجوم قميصا عليك — ولاثوا السحاب مكان الردا

* * *

فذا أمكن اسمع أزدك — قواف بإذنه عودا
لو استطاع سامع أبياتها — إذا قام راويها منشدا
يصير أبياتها سبحة — ومثل قرطاسها مسجدا
مهنئة أبدا من علاك — بما استأنف الحظ أو جددا
وبالصوم والعيد حتى تكون — آخر من صام أو عيدا

إنها قصيدة جيدة بديعة ولكن الشاعر يهتم فيها بممدوحه فيخصه بها كلها ولا يذكر العيد إلا ذكرا عابرا . وغير هؤلاء كثيرون يضيق المقام عن ذكرهم، ممن اتخذوا هذه المناسبة وسيلة لأغراضهم يرجون فيها مدائحهم للأمراء والخلفاء.

* * *

فإذا تركنا القدامى إلى المحدثين وجدنا الأمر يختلف اختلافا بينا، فقد تبدل الحال غير الحال، وسمت الأغراض، وقل مدح الشعراء للملوك والأمراء واستجداء عطاياهم، فقد أصبحوا يتأثرون بما تحسه شعوبهم من آلام وآمال، ويعبرون عما يجول فى نفوسهم، مشاركين فى كل حركة، مصورين ما يعتلج فى قرارة نفوسهم من عواطف وأحاسيس . فاعتبر شعرهم بحق سجلا لأيامهم وما يقع فيها من أحداث ...

فهذا أمير الشعراء أحمد شوقى نراه عندما يستقبل عيد الفطر يستقبله بنفس ملأها الحزن والأسى، وتفيض بالحسرة والألم، لما يرى فى مجتمعه من نفاق وغدر، ولانحلال الأخلاق وتفكك الروابط والصلات، فيتألم أشد الألم بعد ما يحتفل بالعيد الذى خلصه من القيود الثقيلة ليطلق نفسه على سجيتها، ويدعو كأسه ليعانقها فيقول:

رمضان ولى هاتها يا ساقى — مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها — وأقله فى طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها — إن كان ثم من الذنوب بواق
بالأمس قد كنا سجينى طاعة — واليوم منّ العيد بالإطلاق

* * *

لا تسقنى إلا دهاقا إننى — أسقى بكأس فى الهموم دهاق
فلعل سلطان المدامة مخرجى — من عالم لم يحو غير نفاق
وطنى أسفت عليك فى عيد الملا — وبكيت من وجد ومن إشفاق
لا عيد لى حتى أراك بأمة — شماء راوية من الأخلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم — وبقيت فى خلف بغير خلاق
أيظل بعضهم لبعض خاذلا — ويقال شعب فى الحضارة راق
وإذا أراد الله إشقاء القرى — جعل الهداة بها دعاة شقاق

الحق أننا ظلمنا الشاعر حين قلنا يطلب كأسه يعانقها، فهو لم يفعل هذا حبا فى الكأس، ولكنه يريد أن يتخلص بها من همومه وأشجانه، وحتى لا يرى ما يرى من فساد فى الأخلاق لكن يقول (وداونى بالتى كانت هى الداء)

وأما الشاعر المعاصر (محمود أبو الوفا) فيلتفت إلى المجتمع المصرى فيروع نفسه ما فيه من فروق ومتناقضات ومن سوء توزيع للثروة، فثراء فاحش بجانبه فقر مدقع، ويرى كيف يأكل الأغنياء حقوق الفقراء، فيزفر زفرات حرى تخرج كأنها اللهب المحرق يلفح الوجوه فيشويها إذ يقول:

أرأيت مصر اليوم كيف ازينت — أرأيت وجه العيد فى أبنائها
الفقر فى أقوامها غطى على — آمالها وطغى على سرائها
كبراؤها والأغنياء بأرضها — غفلوا حقوق الله فى فقرائها

ويقول من قصيدة أخرى فى نفس المناسبة:

عهد الصراحة ما بال الصريح به — لا يملك النطق إلا بالكنايات
أحب أضحك للدنيا فيمنعنى — أن عاقبتنى على بعض ابتسامات

٩ - فى الحديث المحمدى

للأستاذ محمود أبو رية

الإسرائيليات فى الحديث :

لما قويت شوكة الدعوة المحمدية واشتد ساعدها ، وتحطمت أمامها كل قوة تنازعها ، لم ير من كانوا يقفون أمامها ، ويصدون عن سبيلها ، إلا أن يكيدوا لها من طريق الحيلة والاختداع ، بعد أن عجزوا عن النيل منها بوسائل القوة والنزاع

ولما كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، لأنهم بزعمهم شعب الله المختار ، فلا يعترفون لأحد من غيرهم بفضل ، ولا يقرون لنبى بعد موسى برسالة، فإن دهاتهم وأحبارهم لم يجدوا بدا بعد أن غلبوا على أمرهم وأخرجوا من ديارهم من أن يستعينوا بالمكر ويتوسلوا بالدهاء لكى يصلوا إلى ما يبتغون . فسول لهم المكر اليهودى بأن يتظاهروا بالإسلام ويطووا نفوسهم على دينهم ، حتى يخفى كيدهم ويجوز على الناس مكرهم . وقد كان أقوى هؤلاء الكهان دهاء ومكرا كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سبأ فاستغلوا بإسلامهم ، واندسوا بين المسلمين مظهرين عبادتهم وورعهم

ولما وجدوا أن حيلهم قد راجت وأن المسلمين قد اغتروا بهم وسكنوا إليهم ، جعلوا أول همهم أن يضربوا المسلمين فى صميم دينهم؛ وذلك بأن يدسوا إلى أصوله التى قام عليها، ما يريدون من أساطير وخرافات ، وأوهام وترهات، لكى تهى هذه الأصول وتضعف ولما عجزوا عن أن ينالوا من القرآن الكريم لأنه قد حفظ بالكتابة والتدوين ، واستظهره الكثير من المسلمين، وأنه قد أصبح بذلك فى منعة من أن يزاد فيه كلمة أو يندس إليه حرف — اتجهوا إلى السنة القولية فافتروا على النبى أحاديث لم تصدر عنه ، وأعانهم على ذلك أن ما تحدث به النبى فى حياته لم يكن محدود المعالم ولا محفوظ الأصول، وأن فى استطاعة كل ذى هوى أو دخلة سيئة أن يندس إليه بالافتراء ، ويسطو عليه بالكذب؛ ذلك بأنه لم يدون فى عهد النبى كما دون القرآن ، ولا كتبه أصحابه من بعده ، وقد يسر لهم كيدهم أن وجدوا الصحابة يرجعون إليهم فى معرفة ما يجهلون من أمور العالم الماضية والمستقبلة — واليهود بما لهم من كتاب وعلم فيهم من علماء وأحبار يعتبرون أساتذة العرب الأميين فيما يجهلون

قال الحكيم ابن خلدون (١) فى مقدمته عندما تكلم عن التفسير النقلى، وأنه يشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود : والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهود، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم . . وتساهل المفسرون فى مثل ذلك

(١) ص ٤١٠ من المقدمة

هاج الجواد فمضته شكيمته شلت أنامل صناع الشكيمات

إنها أنفاس محترقة ، وعصارة نفس حساسة، تزخر بالشعور النبيل ، وتجيش بالعواطف السامية

والشاعر الحجازى (أحمد العربى) ينظر فيرى الفقير فى يوم العيد ذليلا حائرا لا يملك ما يشارك به القوم ليفرح كما يفرحون، فيتألم أشد الألم فيتمنى أن يصبح العيد وسيلة لعطف الأغنياء على الفقراء ليشيع السرور فى الجميع فيقول :

ليت شعرى متى يكون لنا عيـ ـد حقيق برمزه المكنون
فيشع الهناء فى كل نفس ويواسى فؤاد كل حزين
قد ، لعمرى ، أنى لنا أن نرى العيد مشاعا وقرة للعيون

هذه بعض نفثات قطفتها لك من شعر شعرائنا لتعرف كيف يحتفلون به كما يحتفل الأجانب بأعيادهم القومية ، أعاد الله أمثال هذا العيد على الأمة الإسلامية بالخير وإقبال السعود

أسيوط عبد الموجود عبد الحافظ

وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات .. وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة

وقال ابن كثير في تفسيره (٢) « لما أسلم كعب في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده من غث وسمين »

ومن أجل ذلك كله أخذ أولئك الأحبار يبثون في الدين الإسلامي أكاذيب يزعمون مرة أنها في كتابهم ، ويدعون أخرى أنها من مكنون علمهم ، وما ذلك كله إلا من مفترياتهم . وأنى للصحابة أن يفطنوا لتمييز الصدق والكذب من أقوالهم وهم من ناحية لا يعرفون العبرانية التي هي لغة كتبهم ، ومن جهة أخرى فإنهم أقل منهم دهاء وأضعف مكرا ، وراجت بذلك هذه الأكاذيب وتلقى الصحابة ومن تبعهم كل ما يبثه هؤلاء الدهاة بغير بحث ولا نقد ، معتبرين أنه صحيح لا ريب فيه

وقبل أن نعرض لبيان هذه الإسرائليات التي امتلأت بها كتب الحديث والتفسير والتاريخ نأتي بفذلكة صغيرة من تاريخ هؤلاء الأحبار الذين بثوا هذه الإسرائيليات ليكون القارئ على بينة منهم

كعب الأحبار :

هو كعب بن ماتع الحميرى من آل رعين — وقيل من ذى الكلاع من اليمن، كان من أحبار اليهود وعرف بكعب الأحبار، أسلم في عهد عمر وسكن المدينة في خلافة عمر ثم تحول إلى الشام في زمن عثمان ومات بحمص سنة ٣٢ أو سنة ٣٤ هـ

وقد استصفاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه كما يقولون (٣) وأمره أن يقضى . وقال عنه الذهبي في تذكرة الحفاظ . . قدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم — وروى عنه جماعة من التابعين مرسلا

سبب إسلامه :

وضع كعب الأحبار لإسلامه سببا عجيبا ليتسلل به إلى عقول المسلمين، فقد أخرج ابن سعد بسند صحيح عن سعيد بن المسيب قال : قال العباس لكعب : ما منعك أن تسلم في عهد النبي وأبي بكر ؟ فقال إن أبي كتب لي كتابا من التوراة فقال اعمل به، وختم على سائر كتبه ، وأخذ على بحق الوالد على الولد أن لا أفض الختم عنها، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت لعل أبي غيب عنى علما ففتحتها فإذا صفة محمد ! وأمته ! فجئت الآن مسلما !

وروى عن عبد الله بن عمر أن رجلا من أهل اليمن جاء إلى كعب فقال له : إن فلانا الحبر اليهودى أرسلني إليك برسالة . . فقال كعب هاتها ! فقال الرجل : إنه يقول لك ، ألم تكن سيدا شريفا مطاعا ؟ فما الذى أخرجك من دينك إلى أمة محمد؟ فقال له كعب : أتراك راجعا إليه ؟ قال نعم : قال إن رجعت إليه فخذ بطرف ثوبه لئلا يفر منك ! وقل له يقول لك : أسألك بالذى فلق البحر لموسى وأسألك بالله الذى ألقى الألواح إلى موسى ابن عمران فيها علم كل شئ (٤) ألست تجد في كلمات الله تعالى أن أمة محمد ثلاث أثلاث ، فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ! وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ! وثلث يدخلون الجنة بشفاعة أحمد ! فإنه سيقول لك نعم ! فقل له يقول لك كعب : اجعلنى في أى الأثلاث شئت ! (٥)

وهب بن منبه :

قال المؤرخ جورجى زيدان في تاريخ التمدن الإسلامي (٦) هو فارسى الأصل جاء جده إلى اليمن في جملة من بعثهم كسرى لنجدة اليمن على الحبشة، فأقاموا هناك وتناسلوا، وصاروا يعرفون بين العرب (بالأبناء) — أى أبناء الفرس ومنهم طاووس بن كيسان التابعى الشهير

وكان آباء وهب على دين الفرس (المجوسية أو الزردشتية) فلما أقاموا بين اليهود أخذوا عنهم بآداب اليهود وتقاليدهم فتعلموا شيئا من النصرانية . وكان يعرف اليونانية «وعنده من علم أهل

(٢) ص ١٧ ج ٤

(٣) وكيف لا يوصف بكثرة العلم وقد قال لقيس بن خرشة ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة (رواه الطبراني والبيهقي في الدلائل)

(٤) إذا كانت ألواح موسى فيها علم كل شيء ، فترى ماذا بقي من العلم لنبي أو رسول أو عالم يأتي بعدهم !

(٥) ص ٢٦٦ ج ١ حياة الحيوان

(٦) ص ٦٢ ج ٣

الـكتاب شيء كثير » . وقد أدرك عدة من الصحابة وروى عنهم . ومن أقواله : إني قرأت من كتب الله ٧٢ كتابا ! ومن أجل ذلك كان المسلمين ثقة كبرى به

وقال الذهبي عنه في تذكرة الحفاظ ولد سنة ٣٤ هـ روى عن أبي هريرة وعن عبد الله بن عمر وابن عباس وتوفي بصنعاء سنة ١١٠ هـ وقيل غير ذلك

كيف استحوذوا على عقول المسلمين

اتبع هؤلاء الأحبار بدهائهم العجيب طرقا غريبة لكي يستحوذوا بها على عقول المسلمين ويكونوا بذلك محل ثقتهم وموضع احترامهم . وإليك طرفا من هذه الأساليب الغريبة التي كانوا يتخذونها ليستولوا بها على عقول الصحابة فيركنوا إليهم ويثقوا بهم ويأخذوا عنهم

أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام وهو من كبار أحبار اليهود الذين أظهروا الإسلام . أنه مكتوب في التوراة في السطر الأول : محمد رسول الله عبده المختار مولده مكة ومهاجره طيبة وملكه بالشام (٧) وهذا الذي أخرجه الترمذي عن ابن سلام قد أحكمه الداهية كعب ! فقد ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح أن الداري روى عن كعب في صفة النبي في التوراة قال : في السطر الأول محمد رسول الله عبده المختار مولده مكة ومهاجره طيبة وملكه بالشام . وقد بحثنا عن السطر الثاني من هذه الأسطورة أو الخرافة حتى وجدناه في سنن الداري كذلك ، ومصدره الداهية الأكبر كعب ، ووجدنا للسطر الأول تكملة لم يأت بها عبد الله بن سلام ، فقد روى ذكوان عن كعب قال في السطر الأول : محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام . وفي السطر الثاني : محمد رسول الله ، أمته الحامدون يحمدون الله في السراء والضراء ، يحمدون الله في كل منزل ، ويكبرون على كل شرف رعاة الشمس يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ، ويأتزرون على أوساطهم ويوضئون أطرافهم ، وأصواتهم بالليل في جو السماء كأصوات النحل

وهذا الكلام قد أورده ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس في جواب لكعب ، وذكره كذلك من عند نفسه أحد تلاميذ كعب : عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه البخاري عند ما سئل عن صفة النبي في التوراة

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال : مكتوب في التوراة صفة النبي وعيسى ابن مريم يدفن معه !

وروى الجواليقي في المعرب (٨) أن ابن الأعرابي ذكر عن كعب أنه قال : أسماء النبي في الكتب السالفة محمد وأحمد وحياط أي حامي الحرم ! وروى القاضي عياض في الشفاء (٩) أن وهب ابن منبه قال :

قرأت في أحد وسبعين كتابا فوجدت في جميعها : أن النبي أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا – وفي رواية أخرى – فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جانب عقله (ص) إلا كحبة رمل بين رمال الدنيا !

والذي أغرى كعب الأحبار بالرواية والاتساع فيها أن عمر كان في أول الأمر يستمع إليه (١٠) ثم توسع الناس في الأخذ عنه ، وبالغ هو – كما قال الحافظ بن كثير « في نقل ما نقل من الأشياء إلى كثير منها ما يساوي مداده » ولما تبين لعمر أنه كذاب منع الأخذ عنه ، ونهاه عن الرواية عن النبي ، وأنذره إذا هو روى أن يعيده إلى بلاده

المنصورة للكلام صلة محمود أبو رية

(٧) تخصيص الشام بالملك في كلام هؤلاء الأحبار إنما كان لأمر سياسي خطير سيأتيك نبأه بعد ، ولم يقف ذكر الشام وفضله على لسان دهاة اليهود فحسب ؛ بل (وضع) فيه كذلك رجال من المسلمين أحاديث كثيرة ورفعوها إلى النبي وألفوا في ذلك كتبا ، ومما زعموه أن الأبدال ستظهر في الشام ...

(٨) ص ١٢٢ (٩) ص ٥٥ ج ١

(١٠) لما زعم كعب : أنه ما من شيء إلا وهو مكتوب في التوراة ، كان الصحابة يسألونه عن كل شيء حتى عن الشعر الذي هو ديوان العرب ، فقد حكى أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابوري أن كعب الأحبار قال له عمر بن الخطاب – وقد ذكر الشعر – يا كعب : هل تجد للشعر ذكراً في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم ينطقون بالحكمة ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب ! (ص ٨ العمدة – لابن رشيق)

الشعر المطعم

للأستاذ كامل السيد شاهين

نريد بالشعر المطعم ذلك الشعر المعرب الذي اختلطت فيه العامية بالعربية ، ونهض مع ذلك شعراً سويا ، يصور الحياة في كل ناحية ، فتجده في السياسة ، كما تجده في الأخلاق ، وتجده في الغزل ، كما تجده في الحكم ، وهو أبداً خفيف الروح ، حلو عذب ، يطربك بهذا الأسلوب اللذيذ ، الذي تجتمع فيه المفارقات الحلوة . فبينما تأخذ سمعك الكلمة العربية الجزلة ، تفجؤك بعدها الكلمة العامية المأنوسة ، فتجد لها ما تجد للنكتة الحارة من وقع ، إذ كانت الكلمة العامية بالنسبة سمعك وهو متهيئ للكلمة العربية ، فتجد النفس من ذلك ما تجد لرؤية الطويل المفرط مع القصير الدحداح ، أو كما تجد لرؤية المرأة متربعة في كرسي القاضي الشرعي ، من حيث الفجاءة وعدم التوقع

وتمام الحلاوة في أنك لا تجد بين العربي والعامي في البيت الواحد خللا أو اضطراباً ، ذلك بأن الكلمة العامية تجيء مصقولة صقلا عربيا ، معربة إعراباً صحيحاً ، كأنما تحدرت إليك من أعرابي سليق

وميزة الشعر المطعم عن الشعر العام أنه عصري متواضع ، يمس الاجتماع الراقي كما يمس الاجتماع الشعبي ، وبذلك يصور لنا ناحية يترفع عنها الشعر العام – ونحن نجني في كثير من الأحيان على التاريخ ، عندما نعتمد على الشعر العام في تصوير حياة المجتمع ، لأنه في برج عال رفيع لا ينحط إلى المستوى الشعبي . فكما كانت الأمثال في القديم أصدق تصويراً للاجتماع العربي من الشعر ، كذلك الشعر المطعم اليوم أصدق تصويرا للاجتماع الحاضر من الشعر العام . ولذا يكون من الخطر إهدار هذا النوع من الشعر المطعم لأنه أمس بالحياة العامة . فهو يصور المجتمع وينقده نقدا لاذعا في خفة وفكاهة

فنحن – مثلا – نجد الفضول والتطفل داء قديماً ، ولكن الشعر العام إذا تناوله لم يبلغ فيه من الصدق وتصوير الواقع ما يبلغ الشعر المطعم . فهذا شاعر يقول في وصف ثقيل : —

بارد لو يخش في النار تلقى النـــاس في النار كلها بردانه
كما شاف صاحبين يقولا ن كلاماً دغري يمد ودانه
ويطيل الحديث آه يانا ياعلـــبي ويا وعدي من لته آه يانه
وتراه قدامنا مادحا فيـــنا ويا ما يذمنا من ورائه
يدعي أنه ابن ناس ذوات أورثوه في زعمه أطيانه
وهو والله يا عزيزي أبوه عربجي وأمه بلانه !

ثم اسمع هذا الختام المحكم القوي :

أيها الناس بعضكم عسل صا ف لذيذ ، وبعضكم ديانه !

فكم من الأدباء عرض لوصف الثقلاء ، ولكنهم لم يصوروا هذا التصوير البديع الصادق الذي يستمد قوته من صدقه وإبرازه الوقائع كما هي

والناس يصرخون اليوم من أجرة الأطباء ، ولكن الشعراء لا يتناولون هـذه الناحية من اجتماع الأمة ، ويتناولها الشعر المطعم فيقول الشاعر معارضا قصيدة أبي فراس : —

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا بردان ، وعنـــدي كحة
ولكن مثلي لا يطيب له صدر
فهل علم الدكتور أني بكحتي
أمزق أحشائي الغداة ولا فخر
وقال التمرجي هل معـــاك فزيتة
تخش بهـا ، أوما معـاكشي فتنجر
وقال أصيحـابي الدخـول أو الردى
فقلت هما أمران : أحلاهما مر
ألم تعـــلموا أني فقـــير وأنه
إذا شافني خمسون قرشـــا له أجر
بنصف جنيه نظرة فابتســـامة
فمقصوصة من دفتر فوقها حبر !

ولـكن إذا حم القضـاء على امـرئ
فليس له بر بقيه ولا بحر

فاضطرار المريض ، وغلظـة المرض ، وجشـع الطبيب ، مصورة هنا أروع التصوير وأبرعه

وكثير من الأغنياء لا يسهم في المنافع العامة للشعب ، ولذا نجد المجالس الشعبية تلذعهم بقارص نقدها ، ويسجل ذلك الشعر المطعم :

نعم لك مال ، غير أنك جلدة … فلست بمودود ولا متودد
إذا لم تكن - يا باشا - صاحب نخوة … نخصون لطفا فيك م اليوم للغد

ونجد المجالس الشعبية تتناول عباد الظاهر هازئة ساخرة محقرة ، وترى هذا في الشعر المطعم :

وكم من فتى تلقاه تحسب أنه … أمير التزويق به وتيفندد
مرتبه في الشهر ليس يزيد عن … جنيهين ، وإن الـكاتب عامل أفندي

ولا يقف الشعر المطعم عند تصوير حياة الشعب واجتماعه الخاص ، بل يدس أنفه في السياسة العامة ، ولـكن روحه الشعبية الجمهورية العاطفية . فيهيب بالأغنياء لإمداد فلسطين قبل طغيان اليهود فيقول :

ومن يعلم بما هم فيه يصعق … بخضته ، ومنه يطق عرق
فأين الراعون، ألم تشوفوا … ألستم تسمعون وذاك زعق
أنا كل كستليتاه بصلصا … ونـكر ثم بعد الـكر عشق
وبيت الجـار مهدوم عليه … وممدنه بها للجوع حرق
أغيثوهم وإلا قيل عنا … بجانيين رءوسهم تاق
متبقدشي كدا ، عيب عليكم
إذا ما كنتموش غجرا حتبقوا !

كما يدس أنفه في أمر التعليم ، فالمذهب الشعبي في التربية يوجب التأديب بالعصا ، وقد علمنا أن بعض المعاهد في إنجلترا تحبذ الضرب في التعليم ، وإن كان المربون لا يزالون ينفرون منه . ولما كان الشعر المطعم تعبيرا عن رأى الشعب ، فقد جاء منتصرا محبذا للضرب

وأنا امرؤ قد جئت مصر ولم أكن … إلا غلاما حافيا فلاحا
فدخلت مدرسة وكنت مفرطا … متنططا متشعبطا قراحا
متشابطا متلابطا متخانقا … متصارعا متشاغبا رداحا
وإذا اهتديت رأيتني متمألتا … متمسخرا ، متفلحسا مزاحا

ولا شك أن هذه (الحيثيات) لابد أن تسوق إليه العصا سوقا ، ولذا يقول : —

لـكن خوجاتي على توزوزوا … وعلى نوخي وهات حتى راحا
فعلمت أن اللعب ليس وراءه … إلا دي ، تحت العصاية ساحا
فجعلت أقضي الوقت بين قراءة … وكتابة متأملا وحواحا
ونجحت ثم صبحت فيكم راجلا … ذا شغلة ، لا عاطلا مشكاحا
إخص على زمن يحرم أهله … ضرب الصبي ويشربون الراحا
والله لولا الضرب في التعليم ما … نفع البليد ولا أصاب نجاحا

وليس من شك أن المجالس الشعبية كثيرا ما تدور حول لذائذ الأطعمة وطيباتها ، والشعر المطعم يتكلم بلسان هذه المجالس فيقول :

إرحل عن الدار التي أصحابها … لا يطعمونك من لذيذ المأكل
بئس الطعام الفول وهو مدمس … مهما تحاول بلعه لا ينزل !
زرنا تجد في بيتنا ما تشتهي … من كل مطبوخ وكل مخلل
عملت لنا بالأمس عبلة كفتة … طباخ باشا مثلها لم يعمل
وكبابـعبلة ، لا أقول حاتي ولا … ماني ، وكل منه ثلاثة أرطل
إن الـكنافة لو تمثل شخصها … بين الصنوف تشبها في الأول
وإذا سلاطين الخشاف تجهزت … فاشمر لها الأكمام واشرب واتجل

والشاعر لا ينسى نفسه في زحمة الـكباب والـكنافة والخشاف ، ولـكن يذكر أنه لابد من العزة والـكرامة حتى يطيب الطعام فيقول :

لا تسقني مرق الفراخ بذلة … بل فاسقني بالعز ماء الفلفل
مرق الفراخ بذلة لا أشتهي … والطرشي في عز أراه يلذ لي !

ولـكن . كيف يتناول الشعر المطعم فن الغزل ، والحب يهز قلوب العامة والدهماء على السواء ! إذا بحثنا نجد الغزل في

هذا الشعر غزلا يناسب الطبقة الدنيا ، ويمثلها أروع التمثيل ؛ فلكل طبقة أسلوبها في طريق المغازلة ، عملية وكلامية. وفي الطبقة الشعبية تجد من النساء من تحب من زوجها أن يضربها منذ الليالي الأولى ، وإلا لم يكن شهما ، فهي تشتم زوجها وتعربد عليه ، لتستثيره ، وتختبر مبلغ رجولته

بكرت تستفني وتلعن لي أبي   فأجبتها حالا بضرب الشيشب
مبلولة وتريد مني طيلة   ياموت خذها من أمامي،والنبي
يابنت بنت الكلب،مادخلي أنا   البيت عندك عمري أو خربي

وبينما تجد هذا النوع من النساء في الطبقة الدنيا ، تجد نوعا آخر يحب الدلال ، ويحب المحاسنة ، ولكن مادلال العامة وكيف يكون . هذا شاعر يصور ضربا منه فيقول :

قلت ـ يامنية الفؤاد اركبيني   وامسكي شال عمتي كالعنان آآ

وتجد أسلوب الشعر العامي في الغزل مأخوذا من الحي الشعبي لا يتطفل على الأحياء الراقية ، فهذا شاعر يشبه قلبه بالقبقاب ، يوما في رجل هذه ، ويوما في رجل تلك :

ياقلب كالقبقاب حيره الجما   ل ، فتارة تدني،وأخرى تزجر
صبحا برجل فهيمة وعشية   في رجل سلمى،والزمان يجرجر

وهذا آخر يسمى محبوبته بأسماء بلدية مثل ستيتة ، وهنومة وكعب الخير فيقول :

ستيتة لاتكن بجوارك عذلي   فإن بمهجتي حللا بتغلي
وبين أضالعي وابور جاز   وإبرته جفاك لتشعل
حرام أن أعيش بلا وبور   وفي جنبي (بريمس) منه أصلي

ثم يذكر الشاعر دلال محبوبته فيزعم أنها لجهلها بالغزل والدل ، لا تميل كما يميل البان ، ولكن تميل كما تميل الحائط ، ولا ترنو كما يرنو الغزال، ولكن ترنو كما يرنو الأعمى، ولاتتلفت تلفت الظبي ، ولكن تجفل إجفال البغل ـ وأن غزلها أن تصفعه على قفاه بكف كالرحا . كما تشد شعره الذي يشبه (جزة الخروف) ثم تمضي في تقليته ، واستخراج هوامه ، فيقول : —

فالت حائطا ، ورنت كأعمى   إلي ، وأجفلت إجفال بغل
وصافح كفها الرحوى قفايا   وشدت جزتي ومضت تقلي
فلا والله ما حرب البسوس   بأهول من تصيدها لقملي

ولو تقمنا ذلك لميننا ، ولأعيينا القراء ، وفي ذلك لمن شاء بلاغ

وبعد : فإننا إذا كنا نبكي اليوم لضياع الأزجال الأندلسية الذي فوت علينا معرفة عامية الأندلس ، ولو كشفت الآن لكانت أثرا تاريخيا جليلا — إذا كنا نبكي لضياع هذا التراث ، فإننا أجدر بالبكاء إذا ما ضيعت هذه الثروة التي لم يعن بجمعها أحد ، ولم يسرع لتقعيد قواعدها أحد ، إلا شيئا يسيرا ذكره المرحوم حسين شفيق المصري لا يشفي ظمأ . ولم يعن أحد باستخراج ما تحويه من أساليب وكنايات تعد من أبرع وأروع ما تحوي بلاغات الأمم مما يصلح أن يكون رسالة شائقة فريدة ، وحسبنا أننا فتحنا الباب لمن شاء أن يسلك أو يدرس

كامل السيد شاهين
مبعوث الأزهر للسودان

عقيـــدتى

للفيلسوف الإنكليزى المعاصر برتراند رسل

الأديب عبد الجليل السيد حسن

الفصل الخامس

العلم والسعادة

غرض الأخلاق أن يصلح سلوك الناس، وهذا طموح حميد، لأن سلوكهم إلى حد بعيد يستحق الرثاء. ولكنى لا أستطيع أن أمدح الأخلاق على ما ينشده من إصلاحات خاصة أو على ما يصطنع من طرق لبلوغها، فطريقته الواضحة، هى النصح الخلق، ومنهجه الحقيقى هو نظام الجزاء والعقاب الاقتصادى، والطريقة الأولى تأثيرها غير دائم أو هام، فتأثير الإحيائيين منذ «سافونا رولا (١)» فنازلا كان دائما وقتيا. والثانية - أى الجزاء والعقاب - لها تأثير قوى، فقد جعلت المرء مثلا يفضل عاهرة عارضة على سيدة شبه دائمة، لأنه من الضرورى أن تتبع الطريقة الأسهل تخفيا، وهم من أجل ذلك يبقون على عدد من المهن الخطيرة ليحموا بها انتشار داء الزهرى، ومع ذلك، فليست هذه هى الموضوعات التى ينشدها الأخلاق، ولكنه ليس علميا حتى يلاحظ أنها هى الموضوعات التى حصل عليها حقيقة

ولنر الآن .. هل هناك من شئ أحسن من هذا يمكن أن يكون عوضا عن هذا الخلط غير العلمى من الوعظ والرشوة. ؟ أحسب أن هناك شيئا مثل ذلك

أعمال الناس مضرة سواء عن جهلهم أو عن رغباتهم السيئة، وحينما نتكلم من وجهة النظر الاجتماعية قد نعرف «الرغبات السيئة» بأنها تلك التى تتجه إلى اعتراض رغبات الآخرين أو بالأحرى هذه التى تعترض من الرغبات أكثر مما تمضد، وليس من الضرورى أن نقف طويلا عند الضرر الذى ينبعث عن الجهل، فكل ما يحتاج إليه حينئذ هو معرفة أكثر، ولهذا يكمن طريق الإصلاح فى بحث أكثر وتربية أعظم، ولكن الضرر الذى ينبعث عن الرغبات السيئة أمر أكثر صعوبة

وهناك مقدار من الحقد الفعال عند الرجل والمرأة العاديين، ولدى كل منهما ضغن خاص يوجه نحو أعداء معينين، وسرور عام مبهم لمصائب الناس، وعادة يوشى كل ذلك بكلمات معسولة، وإن ما يقرب من نصف الأخلاق المألوفة، لهو عبارة عن عباءة ورداء لها، ولكن يجب أن يواجه الأمر بصراحة، إذا أراد الأخلاقيون أن يبلغوا هدفهم فى إصلاح الأعمال. وقد بدا ذلك بآلاف الطرق، صغيرة وكبيرة: فى الغبطة التى يكرر الناس بها الفضيحة، ويعتقدون فى صحتها؛ وفى معاملة المجرمين القاسية رغما عن البراهين الجلية فى أن المعاملة الحسنة أثرها أكبر فى إصلاحهم؛ وفى هذه الوحشية العجيبة، التى يعامل بها جميع الأجناس البيض الزنوج؛ وفى الانشراح الذى تبديه السيدات العجائز والقسس نحو واجب الخدمة الحربية على الشباب أثناء الحرب؛ وحتى الأطفال قد يكونون موضوعات للقسوة الرعناء، فدافيد كوبر فيلد، وألفر توست (٢) ليست كلها خيالية. وهذا الحقد الفعال أسوأ سمة فى طبيعة الإنسان؛ ومن الضرورى تغييره إذا كان للعالم أن يسعد. ومن المحتمل أن هذا السبب وحده له دخل كبير فى الحرب أكثر من الأسباب الاقتصادية والسياسية مجتمعة

فكيف نعمل للقضاء على مشكلة الحقد ؟

أولا دعنا نحاول أن نفهم عللها، وما هى ذى كما أحسبها؛ بعضها اجتماعى وبعضها فسيولوجى. فالعالم الآن وكما كان فى أى زمن سالف، مؤسس على النزاع بين الموت والحياة، وكان السؤال فى النشرة أثناء الحرب هو: هل ألمانيا أو أطفال الحلفاء يجب أن يموتوا من الحاجة والمسغبة. ؟ (وبصرف النظر عن الحقد عند كلا الطرفين فلم يكن هناك من الأسباب ما يمنع أن يعيش كلاهما ؟) ومعظم الناس يتمثلون فى أغوار

(١) Savonarola مصلح دينى إيطالى كانت نهايته الإعدام وهو من الذين ساهموا فى حركة الاحياء الأوربية (عصر النهضة) ١٤٥٢-١٤٩٨

(٢) هما روايتان من أشهر ما كتب شالز دكنز مصوراً فيها الطفولة المعذبة والحياة القاسية التى يلاقيها الأطفال

عقولهم خوفا ملازما من الدمار . وهـذا على الأخص صحيح عند ذوى الأطماع . أما الأغنياء فيخشون أن يصـادر البلاشفة أموالهم . والفقراء كذلك يخشون فقد وظائفهم أو صحتهم ، وكل منهم منهمك فى مطاردة « السلام » الجنونية ، ويتخيلون أنهم يبلغون إلى ذلك بإبقاء أعدائهم الأشـداء خاضعين ، وفى لحظات الذعر العام تنتشر القسوة على نطاق واسع وجد فظيع ، والرجعيون فى كل مكان يلجأون إلى الخوف ، ففى إنجلترا الخوف من البلشفية ، وفى فرنسا الخوف من ألمانيا ، وفى ألمانيا الخوف من فرنسا . والنتيجة الوحيـدة لما يلجأون إليه هو زيادة الخطر ضد ما يرغبون النجاة منه

ومن ثم يجب أن يكون أول مايهم الأخـلاق ذى النزعة العلمية ، أن يقاتل الخوف ، وذلك يكون بطريقين : زيادة الأمن وبغرس الشجاعة . وأنا أتحدث عن الخوف كانفعال غير معقول للمصائب المحتملة الوقوع ، فحينما تشتعل النـار فى مسرح يدرك الرجل العاقل الـكارثة تماما كالرجل الذى مسه الذعر ، ولـكنه يتخذ طرقا من المحتمل أن تخفف من الـكارثة ، بينما الرجل الذى مسه الذعر يزيدها أوارا . وأوروبا منـذ سنة ١٩١٤ كالمشاهد الذى مسه الذعر فى المسرح المشتعل ، وما يحتاج إليه هو الهدوء ، وإرشادات السلطات عن كيفية الهرب دون أن يسحق بعضهم بعضا أثناء هذه العملية . والعصر الفكتورى رغما عن سيئاته كان فترة تقدم سريع، لأن الناس كان يغلب عليهم الأمل أكثر من الخوف . ولو أردنا التقدم ثانية يجب أن يسودنا الأمل

وكل شئ يزيد فى الأمن العـام ، من المحتمل أن يقلل من القسـوة . وينطبق هـذا على منع الحرب سواء عن طريق عصبة الأمم ، أو بمنع الفاقة ، والعمـــل لبلوغ صحة أحسن بالنهوض بالطب والصحة الوقائية . أو بطرق أخرى تخفف من وطأة المخـاوف التى تتوارى فى أغوار عقول النـاس وتلوح كالـكوابيس حين ينامون . ولـكن لن يتم شئ بمحاولة جعل جزء من الجنس البشرى يسعد على حساب جزء آخر . الفرنسيون على حساب الألمـان ، والرأسماليون على حساب العمال ، والبيض على حساب الصفر . وهكذا دواليك ، فإن مثل هـذه الطرق تزيد الرعب بين الجمهور السـائد مخافة أن يقود الاستياء المظلومين إلى الثورة . والعدالة هى التى تنشر « الأمن » وأعنى بالعدالة ، معرفة الحقوق المتساوية لـكل الـكائنات البشرية

وهناك علاوة على التغيرات الاجتماعية المقصود بها أن تأتى بالأمن ، وسائل أخرى فعالة لإنقاص الخوف ، أعنى بذلك نظاما مقننا يقصد به زيادة الشجاعة . ولأهمية الشجاعة فى المعارك قد اكتشف الأولون وسائل لزيادتها بالتربية والطعام ـ فكان من المعتقد مثلا أن أكل لحوم البشر مفيد . ولـكن الشجاعة الحربية كانت تعتبر امتيازا للطبقة الحاكمة ، فكان الإسبرطيون يجب عليهم أن ينالوا حظا من الشجاعة أوفر من الرقيق ، والضباط البريطانيون أكثر من العسكر الهنود ، والرجال أكثر من النساء ، وهكذا دواليك . وكان من المفروض منذ قرون أن يكون ذلك امتيازا للأرستقراطية، وكل زيادة فى الشجاعة لدى الطبقة الحاكمة كانت تستعمل فى زيادة الأوقار على المظلومين ، ومن ثم تزداد بواعث الخوف عند المستبدين ، ولذلك يتركون أسباب الخوف ولا يقللونها . والشجاعة يجب أن تعقرط(٣) قبل أن تجعل الناس إنسانيين

وقد عقرطت الشجاعة إلى مدى بعيد بالحوادث الراهنـة ؛ فإن النسوة المطالبات بحقوق الانتخاب أبدين أن لديهن من الشجاعة ماعندأشجع الرجال، وهذا البرهان الواضح كان ضروريا لـكسبهن حق التصويت . ويحتاج الجندى العادى فى الحرب إلى مثل شجاعة الـكابتن أو الضابط وأكثر من الجنرال . والبلاشفة الذين يدعون أنفسهم أبطال « البروليتاريا » لا تنقصهم الشجاعة مهما قيل عنهم ، وقد ثبت هذا باستشهادهم فى حقبة ما قبل الثورة، وفى اليابان حيث كان الـ Samurai سابقا محتكرين الأعمال الحربية دعا التجنيد الإجبارى إلى الحاجة إلى الشجاعة بين الذكور من السكان . وهكذا من بين كل « القوى العظمى» قد بذل الـكثير فى نصف القرن السالف لجعل الشجاعة أقل من ذلك وقفا على الأرستقراطيين: ولو لم تـكن هذه الحالة، فإن الخطر على الديمقراطية أعظم مما هو كائن

(٣) عقرط الشئ جعله ديمقراطيا ، قياسا على هوده أو مريه جعله يهوديا أو مريا

ولكن الشجاعة فى الحرب ليست الصورة الوحيدة ، بل لعلها ليست أهم الصور ؛ فهناك الشجاعة فى مواجهة الفقر ، والشجاعة فى مواجهة الاستهزاء ، والشجاعة فى مواجهة عشيرة المرء ، وفى كل ذلك غالبا ما يكون أشجع الجنود عاجزا إلى حد محزن . وهناك فوق كل ذلك شجاعة التفكير بهدوء وعقل فى مواجهة الخطر ، وفى كبح جماح نزوات الخوف العنيف والغضب الشديد ، وهذه بالتأكيد أشياء تساعد التربية على نيلها . وتعليم كل صور الشجاعة يتم بسهولة بالصحة الجيدة والبنية القوية والغذاء الكافى وإخلاء الطريق للدوافع الحيوية الأساسية ، وربما اكتشفت المصادر الفسيولوجية للشجاعة بمقارنة دم قطة بدم أرنب . وليس هناك من حد لما قد يستطيع العلم أن يفعله فى زيادة الشجاعة ، فمثلا التدريب على الخطر ، والمعيشة الرياضية ، والطعام الملائم : كل هذه الأشياء يتمتع بها أبناء الطبقة الدنيا عندنا إلى مدى بعيد ، ولكن ما زالت إلى الآن من امتياز الأغنياء . والشجاعة التى تشجع كثيرا بين الطبقات الفقيرة من المجتمع ، هى شجاعة تحت الأوامر ، وليست من النوع الذى يشمل الابتكار والقيادة ، وحينما تصبح الصفات التى تؤهل لقيادة عامة ، فلن يكون هناك قادة ومقودون . وستتحقق الديمقراطية أخيرا

ولكن ليس الخوف هو المصدر الوحيد للحقد . فالحسد واليأس لهما دخل فى ذلك ؛ فالأمثال مستفيضة بذكر حسد العرج والحدب كمصدر من مصادر العداء ، ولكن عاهات ومصائب أكثر من مصائبهما تنتج نتائج مشابهة ، فالرجل أو المرأة الذى عجز جنسيا يصلح لأن يفعم بالحسد ، ويظهر هذا عامة فى صورة اللمز على من هم أكثر حظا منها . وأكثر القوى الدافعة إلى الحركات الثورية ترجع إلى حسد الفقراء للأغنياء والغيرة بالطبع شكل خاص من الحسد ، « حسد الحب » وغالبا ما يحسد الشيوخ الشباب ، وهم حين يفعلون ذلك يميلون إلى معاملتهم بقسوة

وليس هناك من طريق للتغلب على الحسد كما أعلم ، إلا بأن نجعل حياة الحاسدين أسعد وأحفل ، وأن نشجع فى الشباب فكرة المشروعات الجماعية أكثر من المنافسة . وأسوأ أشكال الحسد هو ما عند الذين لم تكن حياتهم كاملة فى سبيل الزواج أو الأطفال أو العمل . ومثل هذه المصائب يستطاع تفاديها فى أغلب الحالات بإنشاء منشآت اجتماعية أحسن من القائمة ومع ذلك فإن من المحتمل أن يمكث شئ من بقايا الحسد . ويروى لنا التاريخ أمثلة عدة عن قواد كان كل واحد منهم يغار من الآخر ، حتى أنهما كانا يفضلان الهزيمة للازدراء بشهرة الآخر ، وعن سياسيين من حزب واحد أو فنانين من مدرسة واحدة ، كان يغار أحدهما من الآخر . وفى مثل هذه الحالات يبدو أن ليس هناك من شئ يعمل إلا أن نجعل — على قدر الإمكان — كل منافس غير قادر على ضر الآخر ، وأن نعلمه أنه يستطيع أن ينتصر بكفاءته الفائقة فقط . وغيرة الفنان من منافسه قليلة الضرر ، لأن السبيل الوحيد الفعال ، لإرضاء رغبته هو أن يرسم صورا أحسن من صور منافسه ، لأنه ليس من المصرح له أن يحطم صور منافسه . وحينما يكون الحسد أمرا لا يتفادى ، يجب أن يتخذ كحرض لمجهودات المرء الخاصة ، لا لتعطيل مجهودات المنافسين

وقد رأت العلم فى سبيل زيادة السعادة ليست مقصورة على إنقاص هذه الجوانب من الطبيعة البشرية التى تدأب على تحقيق الهزيمة المتبادلة ، والتى نسميها لذلك ، الشر ، ومن المحتمل أن لا يكون هناك حدود لما يستطيع العلم أن يعمله فى سبيل زيادة الخير الإيجابى ، فقد تحسنت الصحة كثيراً بالرغم من عويل هؤلاء الذين يقدسون الماضى ، فنحن نعمر أكثر ، ولدينا أمراض أقل من أى طبقة أو أمة فى القرن الثامن عشر ، وسنكون قريباً أصح مما نحن عليه الآن باستخدام المعرفة التى حصلنا عليها ، ومن المحتمل أن تجعل اكتشافات المستقبل هذه العملية على أوسع نطاق

والعلم الطبيعى أشد الأثر إلى حد بعيد فى حياتنا ، ولكن من المحتمل أن يكون فى المستقبل للفسيولوجيا وعلم النفس الأثر الأكبر حينما نكشف الغطاء عن كيفية اعتماد الشخصية على الشروط الفسيولوجية ، سنكون قادرين ، إذا شئنا ، على أن ننتج كثيرا من أنماط الكائنات البشرية التى نستجيدها . والذكاء والقدرة الفنية وحب الخير — كل ذلك يزداد بلا شك بالعلم . ونادرا ما يبدو هنا أية حدود لما سوف يأتى به استعمال الناس للعلم بحكمة فى سبيل إحداث عالم سعيد . وقد عبرت عن مخاوف فى مكان آخر ، من أن الناس قد لا يستعملون القوة التى استخرجوها من العلم استعمالا

حكما (٤) وأنا مهتم فى الحالة الراهنة بالخير الذى يستطيع الناس عمله إذا اختاروا ، وليس بالسؤال : هل سيختارون ما يسىء إليهم أكثر مما ينفعهم ؟

وهناك بعض مواقف بصدد استعمال العلم فى الحياة الإنسانية أعطف عليها ، على رغم أنى لا أتفق معها فى التحليل الأخير . ومن هذا موقف الذين يخشون « ما ليس بطبيعى » ولقد كان الرائد العظيم لوجهة النظر هذه فى أوربا هو « روسو » وفى آسيا الحكيم الصينى « لاوتز » (٥) الذى قال بذلك منذ ٢٤٠٠ سنة وكان أشد إقناعا ، وإنى لأحسب أن هناك خلطا بين الحق والباطل فى مسألة الإعجاب بالطبيعة الذى هو أمر جوهرى فى حل الإشكال . ولكى نبدأ فى حل هذا الإشكال نتساءل : ما هو الشىء الطبيعى ؟ وهو - بدون لف أو دوران - كل ما كان المتكلم متعودا عليه منذ الطفولة ، فلاوتز كان يعارض وجود الطرق والعربات ، والقوارب ، وربما لم تكن معروفة فى القرية التى نشأ فيها ، ولكن روسو كان معتادا على مثل هذه الأشياء ، فلم ينظر إليها على أنها شىء ضد الطبيعة ، ولكنه كان يرغى ويزبد ضد السكك الحديدية لو أنه عاش حتى يراها ، ونحن نعلم أن الملابس والطبخ موجودان منذ القدم ، بحيث لا نستطيع أن نقول إنهما أتيا إلى الناس عن طريق أنبياء الطبيعة ، ومع ذلك فهم يعترضون على الطرق الجديدة فى كليهما ، وأيضا يظن الذين يسمحون بالعزوبة أن تحديد النسل شر ؛ لأن الأول (تحديد النسل) انتهاك جديد لحرمة الطبيعة ، والثانى (العزوبة) شىء قديم . ومن كل ذلك نرى أن هؤلاء الذين يحبذون فكرة الرجوع إلى كل ما هو طبيعى متناقضون ، والإنسان مدفوع إلى اعتبارهم محافظين

ومع ذلك فهناك شىء يقال فى صالحهم ، مثال ذلك وجود الفيتامينات التى أحدث اكتشافها انقلابا فى خدمة الأطعمة الطبيعية ، ولكن يبدو (ذلك واقع الآن) أنه يستطاع استخلاص الفيتامينات من زيت كبد الحوت والأشعة الكهربائية ، ومن المؤكد أن هذين ليسا جزءا من طعام الإنسان الطبيعى . وهذه الحالة تصور ما قد يحدث من ضرر غير متوقع حين فقدان المعرفة لانتقال جديد فى الطبيعة . ولكن حينما يفهم الضرر فهو يعالج عادة ببعض أشياء صناعية جديدة ، وأنا أحسب فيما يختص ببيئتنا الطبيعية ووسائلنا الطبيعية لإرضاء رغباتنا : أن عقيدة « الرجوع إلى الطبيعة » تبرر أى شىء بعد اتخاذ الاحتياطات التجريبية ، حين اختيار شىء ملائم . مثلا : الملابس - على العكس من الطبيعة - تحتاج إلى أن يضاف إليها عمل آخر غير طبيعى ؛ أعنى الغسيل ، وذلك إذا أريد منها ألا تأتى بالمرض ؛ والعملان مما يجعلان الإنسان أصح من الحيوان الذى يجتنبها

وهناك كلام أكثر من ذلك يقال بصدد « الطبيعة » فى ناحية الرغبات البشرية ، وأنه لشىء قاس وخطر أن ترغم الرجل أو المرأة أو الطفل على حياة تتنافى مع أقوى دوافعهم ، وبهذا المعنى تمدح الحياة المطابقة لمقتضى « الطبيعة » . وليس هناك من شىء صناعى أعظم من إنشاء سكة حديد كهربائية تحت الأرض ، ولكن ، على أن لا يؤخذ أى طفل قسرا ليسافر فى إحداها ، وعلى العكس يجد معظم الأطفال فى هذا الفعل شيئا من السرور . والأشياء الصناعية وما يماثلها من الأعمال التى تشبع رغبات الكائن البشرى العادى ، تعد خيرا ولكن لا يقال مثل ذلك عن وسائل الحياة الصناعية التى تفرضها السلطة أو الحاجة الاقتصادية ، فمثل وسائل الحياة هذه هى من دون شك ضرورية إلى مدى بعيد فى الوقت الحاضر : فالسفر عبر المحيطات يصبح شاقا جدا إذا لم يكن هناك وقادون يتعبون فى السفن البخارية ، ولكن الضرورات من هذا النوع ، هى مما يؤسف له ، وعلينا أن نبحث عن طريق لتجنبها

وفى الحقيقة ليس قدر معين من العمل بالشىء الذى يتألم منه ، ففى تسع حالات من كل عشرة يجعل هذا الإنسان أسعد من الكسل التام ، ولكن مقدار ونوع العمل الذى على معظم الناس أن يعملوه فى الوقت الحاضر ، هو الشر المستطير ، وخاصة ما أبأس تلك الحياة الطويلة التى تجعل من الإنسان عبدا لنظام مطرد . والحياة لا ينبغى أن تكون بمثل هذا النظام الرتيب ، أو هذه المنهج الدقيق ، بل ينبغى أن نفسح المجال لدوافعنا ، حينما لا تكون هذه الدوافع مهلكة وضارة بالآخرين . ومن الواجب احترام الطبيعة البشرية لأن دوافعنا ورغباتنا هى المجموع الذى

---

(٤) أنظر « إيكاروس أو مستقبل العلم »
(٥) Lao — Tze

تتألف منه سعادتنا ، وليس بشيء ذي بال ، أن نمنح الناس شيئا مجردا يدعى « الخير » بل علينا أن نمنحهم شيئا يرغبون فيه ويحتاجون إليه ، إذا كنا نريد أن نزيد من سعادتهم ، وقد يصل العلم في بعض الأوقات إلى أن يشكل رغباتنا حتى لا تتصارع مع رغبات الآخرين كما تتصارع الآن ، وعندئذ سنكون قادرين على إرضاء قسم أعظم من رغباتنا أكثر مما هو حادث في الوقت الحاضر ، وبذلك المعنى ، وبذلك المعنى فقط ، ستصبح رغباتنا حينئذ «أحسن» . والرغبة وحدها ليست خيرا أو شرا من رغبة أخرى حينما نعتبرها وحدها ، ولكن مجموعة من الرغبات خير من مجموعة أخرى إذا كانت كل المجموعة الأولى يستطاع إشباعها كلها في آن واحد ، بينما المجموعة الثانية ، بعضها يتناقض مع البعض الآخر ، وهذا هو السبب في أن الحب خير من الكراهية

إن توقير العالم الطبيعي (٦) ، لا معنى له ، لأنه يجب أن يدرس بقصد جعله خادما للغايات الإنسانية بقدر المستطاع ، ولكنه يبقى من الوجهة الأخلاقية ، ليس خيرا أو شرا . وحينما يتفاعل العالم الطبيعي والطبيعة البشرية كما في مسألة السكان ، فليس هناك من حاجة لأن نبسط أيدينا ساجدين ، ونتقبل الحرب والوباء والمجاعة على أنها الوسائل الممكنة فقط لإنقاص الزيادة المفرطة في السكان ، والإلهيون يقولون : إن من الشر أن نطبق في هذا المجال العلم على الجانب الطبيعي من المشكلة ؛ بل يجب علينا (هكذا يقولون) أن نطبق الأخلاق على الجانب الإنساني ، ونسير بشيء من الزهد . وهم في ذلك بعيدون عن حقيقة أن كل فرد – بما في ذلك الإلهيون أنفسهم – يعلم أن نصائحهم لن تتقبل ، فلماذا يكون من الشر أن نحل مشكلة السكان باستخدام الوسائل الطبيعية لمنع الحمل ؟ وليس هناك أية إجابة يحتمل ظهورها . ما عدا واحدة مبنية على عقائد عتيقة ، فمن الواضح أن دفاع الإلهيين عن القسوة على الطبيعة ومخالفتها ، هو على الأقل عظيم مثل الدفاع عن الرأي القائل بتحديد النسل . ويفضل الإلهيون القسوة على الطبيعة البشرية ومخالفتها ، وهذا الأمر – حينما يأخذ مجاله من التطبيق – يشمل الشقاء والحسد والميل إلى الاضطهاد ، وغالبا الجنون . أما أنا ، فأفضل « القسوة » على الطبيعة البشرية ، ولكنها قسوة من نوع آخر ، تشبه تلك القسوة التي يشملها العمل في آلة بخارية ، وهذا المثل يبين إلى أي حد كيف أن العمل بالمبدأ القائل : إننا يجب أن نتبع الطبيعة غامض ومهوش

إن العالم الطبيعي ، وحتى الطبيعة البشرية ، سيتوقف أكثر فأكثر ، على كونه حقيقة مطلقة ، وأكثر فأكثر سيصبح على نحو ما تشكله المهارة العلمية . والعلم يستطيع إذا شاء أن يساعد أحفادنا على أن يعيشوا الحياة السعيدة بمنحهم المعرفة وضبط النفس والصفات المؤدية إلى الانسجام أكثر من الشحناء . أما في الوقت الحاضر ، فهو يعلم أطفالنا قتل بعضهم بعضا ، لأن كثيرا من رجال العلم يريدون أن يضحوا بمستقبل الجنس البشري من أجل سعادتهم الوقتية ، ولكن هذا الأمر سيزول حينما يحرز الناس على انفعالاتهم نفس السيطرة التي أحرزوها على قوى العالم الخارجي الطبيعية .. وأخيرا سنكون قد كسبنا حريتنا

« تم الكتاب »

عبد الجليل السيد حسن

(٦) Physical nature

مخطوطات نادرة :

وجيز الكلام في ذيل دول الإسلام

للسخاوى

للأستاذ حمد الجاسر

عنى الشيخ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى المولود فى القاهرة سنة ٨٣١ والمتوفى فى المدينة سنة ٩٠٢ من الهجرة — بالتاريخ عناية برز أثرها فيما كتبه من المؤلفات العظيمة التى أشار إلى بعضها فى ترجمته لنفسه فى كتابه (الضوء اللامع) وسلم لنا منها من عيث الزمان وعبثه خير كثير ، مثل : —

١ — الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع فى ستة مجلدات ضخام — وقد طبع بمطبعة السعادة فى مصر سنة ١٣٥٣ — ١٣٥٥ حـذا فيه حـذو شيخه الحافظ ابن حجر فى كتاب (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) وسار على منواله آخرون ، أتوا بعده

٢ — التبر المسبوك — ذيل به على كتاب (السلوك) للمقريزى من سنة ٨٤٥ إلى ما بعد سنة ٨٩٩ — بقليل — ألفه كما قال (إجابة لعظيم وقته الدوادار الكبير فى الأيام الأشرفية قايتباى يشبك بن مهدى الظاهرى) وقال : إنه يقع فى أربعة أسفار — ولعل الجزء المطبوع بهذا الاسم فى مطبعة بولاق سنة ١٨٩٦ قسم من هذا الكتاب

٣ — الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ — وهو كتاب فى التعريف بالتاريخ وبأشهر المؤرخين ومؤلفاتهم وهو مطبوع

٤ — الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر — لا يزال مخطوطا

٥ — القول المنبى فى ترجمة ابن عربى - وهو مخطوط أيضا — وفى هذا الكتاب أورد السخاوى أقوال العلماء المحققين فى شطحات ابن عربى وزلاته

٦ — وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام — قال عنه مؤلفه فى (الضوء) — : إنه نافع جدا ، وقال صاحب كشف الظنون (ص ٧٦٢ الطبعة التركية الحديثة) فى أثناء الكلام على (دول الإسلام) — : ثم ذيله السخاوى من سنة ٧٤١ إلى سنة ٩٠١ ذيلا مختصرا كأصله ، وسماه الذيل التام بدول الإسلام — ثم أعاد صاحب الكشف اسم الكتاب مرة أخرى فى حرف الذال . وسماه جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية (ج ٣ ص ١٦٩) وجيز الكلام فى ذيل تاريخ دول الإسلام وقال إنه من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٨٩٨ ومنه نسخ فى برلين وفينا وأكسفورد والمتحف البريطانى وكوبرلى

وقد اطلعت على جزء من هذا الكتاب لدى أحد علماء نجد فى (الرياض) فرأيت خير تحية أقدمها لحضرات الأساتذة الأجلاء موظفى (القسم الأدبى فى دار الكتب المصرية) وصف هذا الجزء — فقد لا يعدمون منه عونا فى تصحيح الأجزاء الباقية من كتاب (النجوم الزاهرة) ، وقد يجدون فيه مرجعا نافعا فى تاريخ مصر — بل البلاد العربية فى ذلك العهد

يؤرخ هذا الجزء — وهو الأول من الكتاب — الزمن الواقع بين سنتى ٧٤٨ و ٨٩٠ — أى ثلاثا وأربعين ومائة سنة — من منتصف القرن الثامن إلى نهاية العقد التاسع من القرن التاسع — فيذكر الحوادث ثم يتبعها بوفيات الأعيان من علماء وملوك وأمراء ومشاهير ، وهو يوجز فى ذلك أحيانا ويفصل حينا — فسنة حوادثها ووفياتها لا تتجاوز ثلاث صفحات ، وأخرى تستغرق ورقات

مثال من إيجازه (سنة تسع وعشرين وثمانى مائة . فى رجب برز العسكر المصرى وغيره فى الحراقة وقبرس (كذا) حين طرق الجبرآن صاحبها استنصر بملوك الفرنج على المسلمين، لما جرى على بلاده ، ما أشير إليه فى التى قبلها . وأنهم أمدوه ليأخذ إسكندرية — زعم — تأسيا بوالده ، حين طرقها فى المحرم سنة سبع وستين ، أيام الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون — سبق — فكان التقاء الفريقين فى رمضان ، فخذل حزب اللعين وأمسك صاحب قبرس فقيد، وقتل من عسكره فى يوم

واحد ستة آلاف فيما قيل — منهم أخوه وكذا قيد ابنه وابن أخي صاحب السكيتلان وأخذت الأفقنية (١) كرسي المملكة وأقيمت الجمعة بقصره الذي وجد فيه من الأمتعة مالا يحصى، وأذن على صوامع الكنائس، وعادوا بعد أن قتلوا وحازوا من الغنائم مالا يحصى كثرة، وأسروا نحو أربعة آلاف نفس حتى طلعوا القلعة في يوم الاثنين، ثامن شوال، فكان أمرا مهولا لم يعهد في هذه الأزمان مثله وخرج الخلق لرؤيته حتى البكر من خدرها؛ وحضر ذلك أمير مكة ورسل كل من ابن عثمان وملك تونس وأمير التركمان وابن نمير (٢) وكثير من قصاد أمراء الشام، وقرر عليه من المال بسبب افتدائه ما يفوق الوصف، مما يقوم بنصفه الآن، وبالباقي إذا رجع، سوى ما التزم به في كل سنة من المال، والصوف الملون، وأن يطلق من بقي عندهم من أسرى المسلمين. وقال لما دخل إسكندرية ورأى كثرة من بها من الجند: والله إن كل من في بلاد الفرنج لا يقاوم هؤلاء وحدهم، وفرح المسلمون بنصر الله تعالى، وطار خبر هذه الغزوة إلى الآفاق، وعظم بها قدر سلطان مصر، وقال الشعراء الشعر في ذلك فأ كثروا، بل قيل إن الملك قال بلسانه قبل خلاصه مما عرب : —

يا ملكا ملك الورى بحسامه ... انظر إلى برحمة وتعطف

وارحم عزيزاً ذل وامنن بالذى ... أعطاك هذا الملك والنصر الوفى

إن لم تؤمنى وترحم غربتى ... فيمن ألوذ ومن سوا كم لى بقى

ومات في جمادى الآخرة عن دون الثمانين بدمشق العلامة الزاهد الورع الربانى التقى أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن الحصنى ثم الدمشقى الشافعى شارح التنبيه والمنهاج والغاية وأربعين النووى والأسماء الحسنى وصحيح مسلم وغير ذلك؛ كتلخيص المهمات وقمع النفوس. مع القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وانجماعه التام، وتقشفه، وعدم محاباته، وانحرافه عن التقى ابن تيمية، ومبالغته في الحط عليه بحيث ثارت بسبب ذلك فتن كثيرة مما كان الوقت في غنية عنه. وفي ذى الحجة وقد زاد على الستين ببيت المقدس قاضى الشافعية بالديار المصرية وصاحب تلك الحوادث التي لا تخلو من التعصب عليه، الشمس محمد بن عطاء الله الرازى الهروى ممن ولى صلاحية القدس في أول أمره وآخره، والقضاء بينهما مرة بعد أخرى، وكتابة السر. وحدث ودرس وأفتى، وصنف شرح مسلم وغيره، وكان إماما عالما غواصا على المعانى، حافظا لكثير من المتون والتواريخ، رئيسا مهابا، ضخما، حسن الشكالة، ابن الجانب، أثنى عليه غير واحد على ما فيه من طبيع الأعاجم وقوادح. وبنى بالقدس مدرسة. وفي ذى الحجة بالقرب من المدينة النبوية وهو راجع من الحج والزيارة العلاء أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد الدمشقى الشافعى ابن سلام بالتشديد وقد زاد على السبعين وحمل إلى المدينة فدفن بالبقيع وكان حافظا لكثير (الرافعى) مع إشكالات عليه، وأسئلة حسنة، بحاثا يقرئ الفقه وأصوله حسنا، مع يد في الأدب، ونظم ونثر واقتصاد في ملبسه وغيره، وحسن محاضرة، وشرف نفس، ولكنه يتكلم في كبار؛ ويرى بالمفاضلة عن ابن عربى. وقد درس في الظاهرية البرانية والمذراوية وغيرها. وفي ربيع الآخر العلامة شيخ الشيخونية، وأوحد الحنفية، السراج عمر بن على بن فارس القاهرى ويعرف بقارئ الهداية، تصدى للاقراء والإفتاء، وكثرت تلامذته، وصار المعول عليه، مع الاقتصار في أموره كلها، وإعراضه عن بنى الدنيا، وعظمته في الأنفس ومحاسنه غزيرة. وفي جمادى الآخرة عن نحو الثمانين قاضى المالكية بالديار المصرية الجمال أبو المحاسن يوسف بن خالد بن نعيم الطائى البساطى، مصروفا، وكان فيما قاله العينى: عارفا بصنعة القضاء غير مشكور فيه، ولا متقدم في مذهبه وغيره. وفي المحرم فجأة الشيخ المعتقد خليفة المغربى ثم الأزهرى، وفي جمادى الآخرة الشريف أمير مكة حسن بن عجلان بن رميثة الحسنى. وفي رمضان الأتابك قجق الشعبانى الظاهرى، ونزل السلطان فصلى عليه، وكان متواضعا حليما لينا، خائفا على دينه، قاله العينى. واستقر بعده يشبك الساقى الأعرج. وطيباى بن خليل ابن القادر قتلا على يد نائب حلب جارقطلو)

(١) كذا شكلت هذه الكلمة (الأفقنية)

(٢) ابن نمير بن مهنا أمير آل فضل

ومثال آخر لتفصيله فى التراجم — قال فى الكلام على حوادث سنة ٧٤٨ — فى سياق وفياتها (والكمال[٣] أبو الفضل جعفر بن تغلب بن جعفر الأدفوى الشافعى مصنف الإقناع فى أحكام السماع والطالع السعيد فى تاريخ الصعيد والبدر السافر فى تحفة المسافر وجلة . والماهر فى فنون ، مع فقه ونظم ونثر — فى صفر بالقاهرة عن نيف وستين سنة بعد رجوعه من الحج . أثنى عليه الأسنوى وغيره وهو القائل :

إن الدروس بمصرنا فى عصرنا ... طبعت على لغط وفرط عياط
ومباحث لا تنتهى لنهاية ... جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها ... نشأت عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد صار غاية علمه ... أجزاء يرويها عن الدمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليا ... وفلان يروى ذاك عن أسباط
والفرق بين عزيزهم وعزيزهم ... وافصح عن الخياط والحناط
والفاضل النحرير فيهم دأبه ... قول أرسطاليس أو بقراط
وعلوم دين الله عادت جهرة ... هذا زمان فيه طى بساطى
ولى زمانى وانقضت أوقاته ... وذهابه من جملة الأشراط

ودفن بمقبرة الصوفية)

وقد يستعمل المؤلف السجع فى بعض الأحيان كقوله فى حوادث سنة ٨٢١ (فى شوال — اولاً الطواشى، كاشف الوجه القبلى — وكان من الحمقى المغفلين ، والظلمة الفاتكين ، فى صورة الناسكين .) وقوله فى حوادث سنة ٨٧١ (وفى جمادى الأولى على بن رمضان ، الأسلمى أبوه، القاهرى ، مكاس جدة — ممن ظلم وعسف ، وفسق فما كف . وله دار بحارة برجوان كانت مجمعا لمحنه ، وأخذ مسجدا كان بجانبها فأذهب هيئته وعمله مدرسة)

والمؤلف ينقل عن ابن كثير والمقريزى وابن حجر وابن دقماق والعينى وغيرهم — ولكن نقله عن هؤلاء وتعويله عليهم لا يمنعهم من النقد والتجريح — وقد يتحامل على بعضهم تحاملا ظاهرا فلا تمر به مناسبة إلا ابتدرها ، ولا هفوة إلا ذكرها ، كما فعل مع برهان الدين إبراهيم البقاعى المتوفى سنة (٨٨٥ هـ)[٤] . ويكتفى بالغمز الخفى وبالتلميح بعبارة مجملة إن لم يجد موقفا مناسبا — فصارم الدين إبراهيم بن محمد بن دقماق الذى استفاد من كتابه (الجوهر الثمين فى الخلفاء والملوك والسلاطين) كما صرح بذلك فى الكلام على سنة (٨٠٥) التى انتهى الكتاب بانتهائها ، لا يجد المؤلف غضاضة فى أن يصفه لما تكلم على وفاته سنة (٨٠٩) بأنه مؤرخ الديار المصرية ولكنه يتبع ذلك بقوله (وعليه معول كثيرين فى التاريخ مع كونه عامى العبارة) . وتقى الدين المقريزى الذى لم يكتف بنقل كثير من عباراته بنصها بدون إشارة إلى ذلك — بل عمد إلى تذييل كتبه وتكميلها يقول عنه (وصنف فيه — يعنى التاريخ — وطار اسمه به مع عزوه فى غيره) وهذه العبارة المبهمة المجملة يوضحها ما ذكره السخاوى فى ترجمة المقريزى فى (الضوء) من أنه عثر على مسودات الكتابه (الخطط) لأحد العلماء المتقدمين — وهو قول يرده ما عرف من تحامل السخاوى على مؤرخى عصره . والتحاسد بين المتعاصرين المشتركين فى عمل أمر معروف . ويقول السخاوى حينما ساق ترجمة ابن تغرى بردى سنة ٨٧٤ (المؤرخ الفريد فى أبناء جنسه . وما عسى أن يصل إليه ترکى مما كان مشتملا عليه يستكثر من مثله) أما موقفه مع السيوطى فما لا يحتاج إلى بيان . حتى شيخه الحافظ ابن حجر المتوفى سنة (٨٥٢) والذى أفرد ترجمته بمؤلف خاص — ولم فى الثناء عليه مبالغة جاوزت الحد ، حدثنى الأستاذ الشيخ سليمان بن حمدان أحد علماء نجد أن السخاوى هذا ألف فى حقه كتابا سماه (العجر والبجر من أحوال ابن حجر)

أوصاف النسخ :

يقع هذا الجزء فى ٥٩٢ صفحة — مقياس الصفحة ١٦ فى ١٢ سنتيمترا — والمكتوب فيه منها ١٢ فى ٩ سنتيمترا — تحتوى كل صفحة على ١٩ سطرا — تتراوح كلمات السطور بين ١٢ و ١٥ كلمة ، ونوع الكتابة الخط الفارسى الدقيق المهمل

(٣) خطأ مصحح الجزء العاشر من (النجوم الزاهرة) طابع كتاب (الطلع السعيد) لما ذكر وفاة مؤلفه فى سنة ٧٤٨ ، وهى تخطئة خاطئة فالسخاوى ذكر وفاته فى هذه السنة

(٤) أنظر ترجمته فى (الضوء) . وقد ذكر فى (وجيز الكلام) أشياء كثيرة عنه لا يلمع المقام لذكرها

من الإعجام والشكل والخالى من كتابة الهمزات — إلا نادرا ومداد الكتابة أسود سوى أسماء السنين فبالمداد الأحمر — ولا ذكر للكاتب ولا لتاريخ الكتابة . ولا يبعد أن تكون هذه النسخة من مخطوطات القرن العاشر الهجرى، ويؤيد هذا ماجاء فى آخرها بخط مغاير لخط الأصل مما نصه (آخر الجزء الأول من وجيز الكلام فى الذيل لدول الإسلام للذهبى — لشيخنا العلامة الحجة خاتمة الحفاظ والمتقدمين (كذا) أبى الخير محمد بن .. عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر السخاوى القاهرى ...) ومكان النقط كلمات غير واضحة — وكلمة شيخنا تدل على أن كاتب هذا من تلاميذ السخاوى — وكتابة النسخة أقدم من هذه الكتابة .

وقد سقط من أول هذا الجزء كراسة — فى عشر ورقات — لأن كراسات جميع النسخة مرقمة من (١) إلى (٣١) وكل كراسة عشر ورقات سوى الكراسة الأخيرة فورقهاست . وقد يسهو الكاتب فينقص ورق بعض الكراسات ولكنه يستدرك ذلك فى الكراسة التى بعدها — فيجعلها زائدة بمقدار ماينقص من التى قبلها كما فى الكراستين (١٥ — ١٦)

ويبتدئ الكتاب من جملة (استكثر على دمشق فليولنى أى البلاد شاء ولا أدخل مصر. ثم خرج من الغد ومعه أهله وعياله ودوابه وحواصله إلى خارج البلد عند قبته المعروفة به) ثم بعد هذا كلام يقع فى ثلاث صفحات عن قتل (يلبغا) فى آخر جمادى الأولى سنة ٧٤٨ وعن إقامة حسن بن الناصر محمد بن قلاون سلطانا فى يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان ، ثم بعده سياق خبر وفيات (الذهبى) وابن منصور المقدسى والأدفوى وغيرهم، ثم فى آخر الصفحة الأولى من الورقة الثالثة (سنة تسع وأربعين . استهلت والسلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (كذا) ونائبه بمصر بيبغاروس (بدون نقط) الناصرى)

ثم يسترسل المؤلف فى سرد حوادث السنين إلى نهاية سنة ٨٩٠ — على طريقة المقريزى فى (السلوك) بإيجاز

ومن أمثلة الإشارات اللطيفة الطريفة التى أوردها قوله فى حوادث سنة ٨٨٠ (فى شعبان اجتهد الدوادار الكبير فى تحصيل كتب المؤيدية حين بلغه جحد بعضهم استعارة تفسير الفخر الرازى فى مجلد وإرساله لابن عثمان، بوسم على الخازن وصهره حتى استرجع غالبها وعجز عن التفسير مع إهانة ابن الشحنة الصغير بسببه . وفى رمضان احتال جماعة من تجار كيتلان الفرنج فى أسر جماعة من أعيان التجار المسلمين من ساحل الثغر السكندرى ثم باعوهم لبعض الروادسة إلى أن افتكوا من أيديهم بعد أخذ القدر المتفق عليه فى شعبان سنة اثنتين وثمانين)

هذا وصف مجمل لهذا الجزء . رجاء أن ينشط أحد قراء هذه الصحيفة بوصف أتم وأكمل للكتاب كله

الرياض — محمد الجاسر

قانصوه الغورى

سلطان مصر الشهيد

الأستاذ محمود رزق سليم

الفصل الرابع

أقوال وأحاديث

بعد تولية السلطان الغورى ببضع سنوات ، جلس الشيخ « ولى الدين القوصى » الفقيه ، فى إحدى مسائيات شهر رمضان تجاه مسجد الغورى ، الذى أنشأه حديثا فى حى الشرابشيين ، فى حانوت صديق له يمتهن حرفة الحياكة ، ويتعاطى صناعة الأدب ... ويدعى « علم الدين الخياط »

خرج « علم الدين » من غمار عاميته بعض الخروج ، وأصبح ربع مثقف . ولقد كان رجلا سمح الوجه ، رطب الحديث ، حسن اللقاء ، يحب الأدباء والفقهاء . وقد تلقف من مجالسهم ، ومن أفواههم ، خليطا من النكات البارعة ، والمحاضرات اللطيفة ، والقولات النافعة . ودس نفسه فى مجالاتهم ، وعاونه عمله على أن يكون له من بينهم عدة من الأصدقاء

أقبل الناس على « علم الدين » وكثرت زبائنه ، فاتسع حانوته وازدان وتجمل . واستطاع أن يحتجز ركنا من أركان هذا الحانوت ، ليكون مكانا مطمئنا ، وملتقى هادئا ، يتداعى إليه أصدقاؤه

وكان أجمل ما يكون اللقاء بينهم فى تلك الليالى الرمضانية الجميلة التى يحلو فيها السهر والسمر والحديث

ولقد أعد « علم الدين » بهذا الركن عدة من مصاطب واطئة كســــاها بالحصير الملون . وربما تجد ببعض جوانبها وسائد وحشيات تلطف الجلسة وتهون أمرها وتسهل إطالتها ، بل ربما تثرى بها وتدعو الأصدقاء إليها

وانتشر فى نواحى الحانوت ، القناديل الزيتية النظيفة الوضيئة فأضفت عليه ثوبا جذابا من النور

وكان « ولى الدين » الفقيه ، ممن يفد إلى « علم الدين » ويتردد عليه من آن لآن ، ويجالسه فى حانوته ويقيم معه فى ركنه المعد لضيفانه ، زمنا ليس بالقليل . بل ربما كان « ولى الدين » من خاصة خاصانه الذين أدمنوا القبوع فى ركن حانوته الوثير

وفى الليلة المذكورة وفدا إليه ، وفاء لموعد اتفقا عليه ، ليجتمع إلى سمرهما طائفة من الأصدقاء ، يطالع بعضهم بعضا بالجديد من أخباره ، واللذيذ الممتع من قصصه ، والخفى من مدخرات علمه

وكان علم الدين ، وولى الدين ، ومن يجلس إليهما ، قد اعتادوا أن يتناولوا فى مجالسهم أخلاطا من مسائل شتى قد لا تجمعها جامعة ، إلا مناسبات استطرادية تافهة ، وهى ما بين روايات أدبية ، وطرف فكاهية ، وأحاديث سياسية ، ونقدات اجتماعية ، ومساءلات فقهية ، وعظات تاريخية ، ونحو ذلك

وقد يحمى بينهم وطيس الجدل والنقاش . وقد يسفل بهم الحديث وخفته والجاجه ، إلى مجانة ممجوجة ، ودعابة مكشوفة ، وقد يرتفع بهم الحديث ، فيسمون إلى أعلى المقامات ... فينقدون النقد المر اللاذع حقا كان أم باطلا .. صوابا كان أم خطأ ... حتى إذا ما انفض سامرهم ، وانقضى مجلسهم ، انفض كل شئ من حديثهم فيه ، وانقضى . ولم يبق فى ذهنهم ولا لسانهم من أثره شيء ، وإن علقت أشياء منه بنفوسهم ولونت عواطفهم

غير أن خطر هذا الحديث — إن كان ثمة خطر — لا يتعدى دائرة هذا الحانوت ... وما كان لخطره أن يتعداها ... لأن هؤلاء المتحدثين أشباه متثقفين ، ثم ليس لهم صلة وثيقة بالعامة تجمعهم معها على رأى . وليسوا بواجدين من يصيخ لهم إذا أهابوا ، أو يجيب إذا دعوا . ثم إن العامة غافلة لاهية ، وحولها هذا النطاق الحديدى المضروب من السلطان وأمرائه ورجال دولته

ثم ما لهؤلاء والجهاد والكفاح وهم لم يجتمعوا قط إلا لتسلية وقطع وقت فراغ ؟

* * *

هبت أنسام الليل وانية لطيفة ، فأيقظت من الأذهان راقدها، وأنعشت من النفوس كاسدها ، وكان الجمع قد التأم شمله : وانتظم عقده ، ومن بينه أديب يتعاطى الشعر يدعى « شهاب الدين » ومتعمم من مستوفى الدولة يسمى « زكى الدين » ، وتاجر من جيران علم الدين ، ولقبه « غرس الدين » ، وآخرون على غرارهم .

قال الشيخ ولى الدين : ما أجمل هذه الأنسام ، وما ألطفها ، وما أرق فؤادها ، وما آسى يدها ، إنها لتسرى إلى النفس فتبعث فيها نشوة غريبة ، وتهزها هزة الفرح والسرور والابتهاج ، كأنما تعطف بها على أهل الأرض سكان الجنة . .

أما الأمس فقد شقت الهاجرة علينا عصا الطاعة — على غير عادتها فى مثل هذا الوقت — وأتحفتنا بصفعات حامية من يديها متوالية . وقد عاونتها علينا تلك الرمال السافية اليقظى التى كانت ناعسة الجفون فى حضن الجبل ، فحركتها الرياح من سباتها ، وأقلقتها من مضجعها ، وشهرتها سلاحا تؤذى به من يعترض سبيلها . . .

فقال التاجر غرس الدين : وأين كنت يا مولانا الشيخ فى ذلك الوقت القائظ ؟ إن الرجل حين ذلك لتجتمع عليه عدة عوامل تدفعه دفعا إلى منزله ، لينال قسطا من النوم أو الراحة . فالحر الشديد ، والرياح الشاردة ، والرمال الهابية ، وانفضاض السوق من التجار والمارة ، وآلام الصوم ، وما تعانيه البطون من الطوى، كل أولئك يغرى المرء بالتماس الدعة والجنوح إلى السكون فى عقر داره . .

فقال الشيخ ولى الدين : حقا ! كل ذلك يغرى بطلب الراحة والاستجمام . ولكن لى صديقا مريضا ، احتجب من عينى منذ أمد ، فوددت أن أزوره وفاء للصداقة وطلبا للأجر . . ! وكنت أخشى أن يضيق وقت الليل عن زيارته . ولقد اضطررت مرارا أن أسير غامض العينين فى الطريق حتى لا يؤذينى الغبار . ولا أكاد أفتحهما حتى تقتحمهما ذراته ، فتقطر عبراتهما . .

ثم أتدرى ماذا أصابنى ؟ صادفت حفرة لم أحتط لها ، فترديت فيها عاثرا فى فضل ردائى ، وأصبحت بذلك عبرة للمارة من الصبية وأشباه الصبية ألا لحى الله الهرم وضعفه .

فقال التاجر غرس الدين : هنيئا لك مريئا يا مولانا . . . !

« ضحك »

ورد الشيخ ولى الدين قائلا : هناك الله يابنى ، وأحسن إليك بأمثالها . .

فقال الشاعر شهاب الدين : جاء فى الحديث الشريف مامعناه : « إنما الأعمال بالنيات » . وقال بعض الشارحين إن هناك مضافا محذوفا ، تقديره « جزاء الأعمال » . . « ضحك »

فقال الشيخ ولى الدين : صه ! متى عرفت الفقه والحديث أيها الشعرور . . ؟ لا تلغ فيما لا تعرف . . ولا تهرف وكف . . حسبك أبيات هزيلة تقيم أودها ، وقواف نحيلة ترم جسدها . . ثم تدفع بها بين أسماعنا المصطكة، وتطن بها كأبطن الذباب . .

ألا قاتل الله حتى زماننا من أمثالك الذين يحسبون أنفسهم فى الشعراء وهم لا يحسنون قراءة الشعر وتقويم بيت من أبياته . . ألم تسمع ما قاله من قبلنا مجد الدين الخياط . . لقد قال :

وفى متشاعرى عصرى أناس أقل صفات شعرهم الجنون
يظنون القريض قيام وزن وقافية وما شاءت تكون ...

فقال شهاب الدين : هكذا أنتم يامعشر الفقهاء ، تتأولون . . ! تدعون الفقه لتحرفوا به الكلام عن مواضعه . . ومن أدراك أيها الشيخ أنى قصدت أن الله عجل لك الجزاء فى الدنيا . . . لعله يدخره لك فى الآخرة !

أما نحن فإننا نعرف أن بعضا من أمثالك الشيوخ يزلقون عن عمد فى الطريق تمهيداً لغاية ، وسبيلا إلى مأرب . . . وقد قال أحد الشعراء :

إذا ما الشيخ ردى فى طريق وقاه الناس من جزع إليه
فذاك لكى يرى غرا صباحا تحن لفرط نجدتها عليه . .

أما فقهك وحديثك فكما قال كمال الدين الإدفوى :

إن الدروس بعصرنا فى عصرنا طبعت على لغط وفرط عياط
ومباحث لا تنتهى لنهاية جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها نشأت عن التخليط والإخلاط
ومحدث قد كان غاية علمه أجزاء يرويها عن الدمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليا وفلان يروى ذاك عن أسباط

والفرق بين عرزم وغزرم وافصح عن الخياط والحناط
والفاضل النحرير فيهم دأبه أقوال رسطاليس أو بقراط
وعلوم دين الله نادت جهرة هذا زمان فيه طى بساطى

فقال الشيخ ولى الدين : اتق الله أيها الشويمر ، ولا تظن بالناس الظنون ، ونحن فى رمضان ...

فقال شهاب الدين : إذا لننتظر حتى يودع رمضان . وبعد ذلك تسن لنا الظنون ... ؟ « ضحك »

فقال الشيخ ولى الدين : لا ! أعنى أن رمضان فترة زمنية طاهرة مباركة ، يتجمل المرء فيها بالسليم من الأخلاق والكامل من الأحاديث ، ليكون صيامه خاليا من كل شائبة . ولعل النفس تصفو خلاله ، فيستمر لها من بعده صفاؤها . .

فقال التاجر غرس الدين : لقد صمت يامولانا أكثر من أربعين عاما ، وصمت أنا أكثر من ثلاثين . فهل صفت نفسك؟ أو لا تزال فى حاجة إلى تجارب أخرى جديدة ...

فقال الشيخ : قال الله تعالى « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » . والصوم عبادة مشروعة وتهذيب للنفوس

فقال المستوفى زكى الدين : يبدو أن مولانا قد أرت فيه أنسام هذه الليلة ، فانسجم فى حديثه . . أفلا تخبرنى أين تصلى الفجر القادم ؟ ليكون لى حظ الجماعة من خلفك ... ؟ « ضحك »

فقال الشيخ : حتى أنت تورى يازكى الدين ... ؟

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

يامعشر القاهريين ! أنتم لا تفوتكم النكتة ، ولا تفلتكم التورية،ولو كانت على أنفسكم،حتى أصبحتم فيها مضرب الأمثال

وما دمت يازكى الدين تريد المزاح ، فإن لك متسعا فى مسجد الشرابشيين ... « ضحك »

فقال علم الدين : ألا قل لنا يامولانا الشيخ ! ما حكم الشرع فى الصلاة فى هذا المسجد ؟

فقال الشيخ : حكم الصلاة ؟ الصلاة مباحة فى كافة المساجد ، وفى الأماكن الطاهرة ، لاحرمة فيها على المصلى أما الجمعة وخطبتها ، فقد أجاز الحنفية تعددها فى المدينة الواحدة . وقد أفتى قاضى الحنفية الشيخ عبد البر بن الشحنة ، لمولانا السلطان الغورى بجوازها فى مسجده هذا ، وأذن السلطان بها

فقال علم الدين : أنا لا أسأل عن حكم الصلاة من هذه الناحية . وإنما قيل إن السلطان بناه بأموال جمعها ظلما وجورا وعدوانا . فهل تصح صلاة فى مسجد لم يؤسس على التقوى ؟

الشيخ : أما الجور فوزره على من يجور . وأما الصلاة فليس هناك ما يبطلها فى مثل هذا المسجد . فالصلاة صحيحة ، وإن لزم المصلى حرمة . .

ثم إن الله تعالى عليم بذات الصدور ، وهو يزن الأعمال صالحها وطالحها ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها

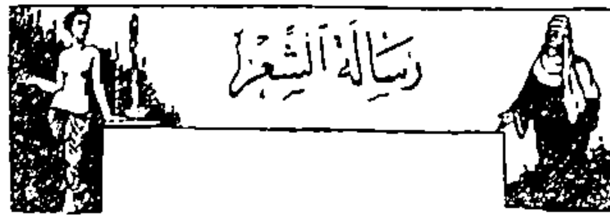
علم الدين : أعلمت يا مولانا الشيخ كيف بنى السلطان مسجده هذا ؟

الشيخ : لقد تهاوى إلى سمعى منذ أمد ما اجترحه السلطان حين تصدى لبناء هذا المسجد وتشييده وتجميله . ولكنى دائما لا أسرع إلى الظن بالناس ، فإن بعض الظن إثم.. ثم إنى أكره الغيبة والنميمة ، وأعرف أن أهل مصر لا تطاق ألسنتهم . . ويل لامرئ تقع عيونهم منه على مذمة ، أو تسمع آذانهم عنه منقصة ، فإنهم لا يغفرون له ذنبا ، ولا يسترون له عيبا . وقد يبالغون فى لومه والحملة عليه بما لا يستحقه . .

ثم إن هذا المسجد قد افتتحه السلطان ومعه قضاة القضاة . لحضورهم معه فى افتتاحه والصلاة فيه فتوى ضمنية للعامة بجواز إقامتها فيه . فإن يكن هناك إثم أو حرمة ، فهى لاصقة بهم . . ولكن كيف جمع السلطان هذه الأموال ظلما وجورا ؟

فقال المستوفى زكى الدين : الحق أن السلطان قد اشتط فى فرض الغرامات على المتهمين ، وجاوز فى ذلك حد العدالة . وأصبحت أقرب عقوبة يؤدبهم بها ، الغرم المالى . فامتلأت بذلك الخزائن الشريفة . .

وربما كان له عذر منذ أول عهده بالسلطنة ، لأنه وجد خزائنها



أول موعد ...

طال انتظاري يا حبيبة ههنا ... منـذ الغروب
والليل قد بسط الجناح على العالم والدروب
ما جئت أنت ، ولا بدا للعين موكبك الرغيب
أما أنا . . فأنا هنا . . من قبل موعدنا الحبيب

* * *

قد حان وقت لقائنــــا ، ومضى ، ولما تقبلي
أنت التي بضياء عينيــــك الشهي حلفت لي
ماذا ترى ألهاك عن عدة اللقــــاء الأول ؟
ما تعملين إذن بحبي في الزمان المقبـل ؟!

* * *

واعدتني اللقيا ، فكدت أطير من فرحي بها
وطفقت أنهب المدى – شغفا – إلى محرابها
أستلهم الأنسام عطرك عالقا بثيابهـا
وصبابتي في أوجها ، في عنفوان شبابها

* * *

ما رف حولي في شعاب الليل طيف أو هفا
إلا أطرت وراءه بصرا وسمعــــا مرهفا
حتى مضى الزمن المجهول ، كنشوتي متلهفا ؛
يستطلع الفجر الوليد ... ولم أزل مستشرفا

* * *

ويفيض بي يأسي الممض فأنثني بمدامعي
صفر اليدين من اللقاء . . سوى لقاء مواجعي

خاوية على عروشها ، بعد أن عاث ما عاث إبان عهد الملك العادل وفتنته . . أما الآن وقد امتلأت بالدنانير ، وغصت بالأموال ، فلا معنى لـكل هذه الغرامات والمصادرات

إن مدرسته المنشأة في هذا الحي ، قد أنفق على بنائها من أموال المصادرات ووجوه الظلم . وبشر على تزيينها ما فرضه من الغرامات على الممتلكات وأراضي الأوقاف ، حتى أوقاف البيمارستان المنصوري قد فرض عليها مالا

ولم يقف عند هذا الحد ، بل غلا في البناء ، وبالغ في الزخرف ، وجلب إلى المدرسة الرخام النفيس النادر وقد ابتاعه من مالكيه بأبخس الأثمان . وخرب قاعة شموال اليهودي الصيرفي ، ونقل منها رخامها وأبوابها قسرا ، وهكذا . . . حتى سماها بعض الظرفاء : « المسجد الحرام » . ! « ضحك »

فقال الشاعر : وقال فيها أيضا بعض الشعراء :

بنى الأشرف الغوري للناس جامعا ... فضاع ثواب الله فيه لطالبه
كمثل حمام جمعت في شباكها ... متى تلق عنها طار كل لصاحبه

فقال المستوفي : أجل ! ثم إنه احتفى بافتتاحها ، وأقام الولائم الحافلة للأمراء والقضاة وأعيان الدولة ؛ فأمر الناس فأقاموا على دورهم وحوانيتهم معالم الزينة ، وعلقوا القناديل الموقودة

وقد عقد بهذه المدرسة تلك القبة العظيمة التي غلفها بالقاشاني الأزرق، وخلع على عدد كبير ممن اشترك في بنائها من المهندسين والبنائين والنجارين والرخمين وغيرهم من الصناع خلعا ثمينة ، وأنعم عليهم بالإنعامات النفيسة ، وأعطى كل « فاعل » ألف درهم

« للكلام بقية »

محمود رزق سليم

لاشىء فى كفى سوى أشلاء حلم رائع
لا شىء غير حطامة الأمل الرضيع الجائع

* * *

هى خطوة ، أو خطوتان ، كامجة التلثم
لبيت بعدها نداء الوهم يهتف فى دمى ؛
بمزارك النائى ، وعدت لوشمى التوسم
كيما أراك ، فلا أرى حتى سراب توهمى

* * *

أفنيت أيامى التى سبقت ، أعدهد لمغنى
مترقبا صبح المنى يبدو بأجل ليلة
أزجى خطاى لكل بستان ، وكل حديقة
حتى جمعت من الشذى المنضور أحلى باقة

* * *

من أبيض يحكى جبينك ، أو وفاء محبتى
أو أحمر يحكى خدودك ، أو جواى وحرقتى
لو كنت أدرى ما انتزعت الشوك منه براحتى
لتركته رمزاً لغدرك قبل أول فرحة

* * *

واها لأزهارى التى قطفتهن لتفرحى !!
وفصلت بين عروشهن وبينهن لتمرحى
واها لأزهارى أصابهن خيبة مطمحى !!
فذوين بعد نضارة ، وذبلن بعد تفتح

* * *

واها لأشواقى ، ولى من حرها التوقد !!
يخبطان فى قفص الضلوع كثائر متمرد
يسألنى صبا إليك كأن قلبك فى يدى
وكأننى . . لا أنت . . من نسى الوفاء بموعدى

* * *

الذنب ذنبي لا تخافي ثورة الشوق المريد
وأنا اللوم ، فواعدى ثم اغدرى ، هل من مزيد ؟
يا كم خدعت ، فما ارعويت ، وكنت ذياك الشهيد
ولدغت من نفس المكان ، وسوف ألدغ من جديد

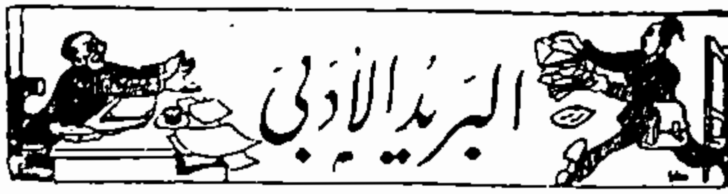
عبد الرحيم عثمان صارو

بابل فى الجيزة

« مهداة إلى الشاعر الشاب الأستاذ كمال نشأت
بمناسبة إصداره ديوان شعر (رياح وشموع) »

للأستاذ عبد اللطيف النشار

ما سحر بابل يا كمال أحقيقة هو أم خيال ؟
ما السحر ؟ هل هو ما يفيض به على النفس الجمال
ما السحر ؟ هل هو أن يدين لمن يحاوله المحال ؟
ما السحر ؟ هل هو أن تقول فيبلغ النفس المقال ؟
ما السحر ؟ هل هو أن تجول بحيث يستعصى المجال ؟
ما بابل تلك التى نالت مكانا لا ينال ؟
هل لاختلاف لغاتها فازت بألوية الجلال ؟
أم للملاكين اللذين يروضان على الضلال
أم للصروح العاليات كأنها بعض الجبال
أم للحدائق فوق أبنية مباركة الظلال
ماذا ترى فى بابل ؟ هل سحرها الموصوف زال؟
اذهب إلى الأهرام وانظر بابلا فوق الرمال
استأسدت وتحجرت والسحر باق لا يزال
وانظر إلى ثالوث أبنية بجانبها طوال
فيهن شىء ليس يدرك كنهه إلا الخيال
فى حيث لامرئ يشهد ناظر أقسى قتال
وترى القرون الأربعين وقد وضمن بها الرحال
جيش من الأجداد يهبط من ذرى فيها عوال
جيش من الأجداد يبلغ كثرة عدد الرمال



حول تحريم الأغاني الخليعة :

قد قررت أخيرا إدارة المطبوعات تحريم عشرين أغنية سواء في الإذاعة أو الصالات أو الحفلات العامة أو الخاصة — وتلك همة مشكورة تحمد عليها — ولكن أين الأغاني الباقية المتبذلة وهي تستحق أن يسري عليها هذا التحريم !

ويعلم الله أن قد آلمنا — ونحن أمة شعارها الإسلام — أن تركنا — إلى الآن — هذه الأغاني الماجنة التي سرت وانتشرت هذا الانتشار في المدن والقرى حتى طغت على كل شيء في حياتنا وألبستها غير لباسها الذي كان يمثل الطهر والعفاف والقداسة !

ومالي أذهب بعيدا؟ فها هي في ذاكرتنا بقايا أغاني الماضي التي كانت تمثل الحياة بصورة فاتنة أخاذة تبين مزاياه وتشير من طرف خفي إلى ما يدور في خلد الفتيان والفتيات من آمال وآلام !

أما أغانينا المستحدثة الهزيلة فإني لا أتصورها إلا حربا على الأخلاق والعادات، بل إني لأستحي أن أشير إلى طرف منها لما فيها من جارح القول وفاحش اللفظ . وأكبر الظن أن هذا النوع من الغناء هو العامل الأكبر في تنحي القليل من فتياتنا عن جادة الصواب وتخبطهن في مهاوي الرذيلة

ولا يخفى على الجميع أن الغناء الفاحش هو أشد على الأخلاق من التهتك المكشوف، إذ أنه وسيلة عملية للإباحة لكثرة ترديده على ألسن الشبان والشابات من آن لآخر

فإلى أن تظهر تلك الأغاني التي نريدها وهي التي تمثل الحياة المصرية في مدنها وقراها بأسلوب سهل محبوب، يهدي إلى الأخلاق العالية، ويمجد الوطن والمروءة، وينشر بأريجه حياة الطهر والعفاف، ويحض على المثل العليا في الحياة، ويمثل في ثناياه أمراضنا الاجتماعية بصورة مزرية حقيرة ينفر منها الطبع السليم والخلق الكامل والتربية الصالحة

أقول ثانيا إلى أن تظهر تلك الأغاني، نريد تحريما باتا لكل الأغاني التي يشم منها رائحة الخلاعة والمجون، لنحمي أنفسنا وذرياتنا من هذا العبث المهين

شطانوف — محمد منصور خضر

سلطان السليط :

السلاطة « هبة » يباهي بها طوال الألسنة، في زمن ممرج لطم الباطل وجه الحق غير متهيب ولا خزيان !

والسليط مسف مستخف، لا يبالي سوى نوعه، ولكل شيء آفة من جنسه، فهو فاتك لهج على الوادعين المسالمين، ومنزو منطو أمام السلاطين المؤذين، وهكذا لا يعرف قدر اللئيم غير اللئيم !

والسليط يماني بلسانه الإسفاف، ويلمق المذرق نهم الذئب !

ومن العجب أن المجتمع يغريه على استدامة سلاطته بالمقاربة والمداراة والتخوف ! فيكبر وهمه في رأسه حتى يغالي في نزواته وغلوائه !

وإن هذا السلطان الذي منحه بخشونة طبعه، وخسة حسه، وانضياع نفسه، وضآلة شخصه، يجب أن يحطم على رأسه

وإن المسالمة في جانب المخاشنة ضعف، والموادعة مع الوضيع غفلة !

يجب أن نحرر شعورنا ونطلقه من محبس الاستحياء، مادام الزمن لا يعرف سوى العنف في منطق المؤاخذة

أشهدت معركة القديم مع الجديد ولم تبال
ويل لجيلك يا كمال أن يفوزوا في النضال
أرأيت (بنتاوور) يدعو بعض جيلك للنزال ؟
من فيكمو ند له إن صال بينكمو وجال ؟
رأس على كتفيك يوشك أن تحطمه النصال
إن لم تكن عوضا لجدك في القتال وفي الفعال
أكمال ما أدعوك إذ أدعوك إلا للكمال
والسحر عندك يا كمال والسحر يطمع في المحال
وتريد شيئا دونها والمجد في طوق الرجال

عبد اللطيف النشار

والحياة سجل حافل بتلك الصور القاتمة التي تظلم جوانبها المضيئة، فتدعونا إلى السأم، والضجر، والمضايقة، ونحن الذين نجلب إلى أنفسنا هذه المعاني بعدم مطاردة الجبناء!

حدثني رجل فاضل قال: كنت أجالس جلة الجالسين؛ فيغشى مجلسنا معتوه أعمى الجنان، مستطيل اللسان، أغراه تسممي إليه، وترفقي به، إلى تزييف كل قول في جرأة وقحة، والجلساء يخشون سلاطته، ويحاولون مجاراته. ولما برم شعوري به اعتزمت أمراً، وجملت على يمنى العصا التي تطوى لسان هذا الرعديد. ولقد عاود حمقه سخفه فزجرته حتى انكمش وتكور ونظر إلى عصاي نظرة الترفق؛ ثم طواه أفق الخزي ولم يعد إلى المضايقة! قلت: إن سلطان السليط مصنوع من الطيبة المرادفة للغفلة!

بور سعيد: **أحمد عبد اللطيف بدر**

حول رسالة الأزهر:

كنت أطالع ما كتبه الأستاذان — سيد قطب — وشاهين — عن الأزهر وكأنه صرخة فزعة تنطلق من كياننا الثقافي والروحي لإيقاظ الأزهر وإشاعة الأضواء حول موقفه الغامض ومستقبله المريب. ولكن كيف يتسنى للأزهر – ما دام يحبس نفسه داخل جدران العصور الوسطى ولا يسمح لنور العصر الحديث أن يملأ آفاقه — أن تكون له رسالة إنشائية إبداعية في الميدان الديني وهو في عزلة عن تلك الدراسات التي تحوم حول رسالة الدين الاجتماعية، والتي تبلورت في علم الاجتماع الديني وعلم مقارنة الأديان. وقد أخذت دراسة الظواهر الدينية في عصرنا تحتل مكاناً هاماً جداً بين مجموعة العلوم الاجتماعية. ولا شك أن الأزهر في أشد الحاجة إلى هذا النوع من البحوث، إذ ليس من الممكن أن تزدهر الدراسات الإسلامية ودراسات التوحيد بصفة خاصة دون هذا العلم. والأزهر يحرص على دراسة اللغة والأدب وشيد لهذه الغاية كلية، فهل حرص الأزهر على كيانها فطعمها بالدراسات الأدبية واللغوية التي تنهض بها الكليات التي تعنى بدراسة اللغة والأدب والتي تقم على بضع خطوات منها – هي لا تعرف قيمة لدراسة اللغة إلا للجانب الذي يتعلق بالإعراب؛ ولهذا كان – الأشموني وحاشية الصبان – يتمتعان بقسط وافر من العناية والجهد ولكن هل عرفت — الكلية — أن هناك أبحاثاً تدور حول اللغة ليست ناحية الإعراب أخصب منها ولا أجدى؛ منها الجانب الاجتماعي والجانب المنطقي والجانب النفسي والتطور اللغوي. الخ، فهل استحقت هذه الدراسات نظرة ولو خاطفة من واضع المنهج لكلية تدرس اللغة؟ وتدرس الكلية ما يقال له الدراسات الأدبية، فهل عرف الأزهر أن الدراسات الأدبية تطورت تطوراً عظيماً وأن هناك ما يقال له — علم النفس الأدبي — الذي أصبح ضرورة في فهم الأدباء وتاريخهم. فالأديب حينما يحس ويتأثر فيجد الحاجة إلى التعبير، والناقد أو القارئ الأديب حينما يتفهم هذا التعبير والإحساس ويتذوقه ليقدره لا يستطيع أحدهما أن يقيم عمله إلا على أساس ثابت من معرفة النفس الإنسانية وحياتها الفنية، وذلك هو ميدان علم النفس الأدبي — فيجب أن نقيم دراستنا الأدبية على الفهم النفسي لكل نص أدبي، وإلا فإنا بدون هذا الفهم النفسي لن ندرك الأدب إدراكاً حقيقياً ولن نتذوقه، وسيكون حكمنا عليه قاصراً خاطئاً ...

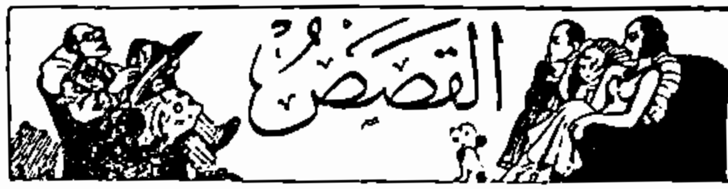
وتدرس الكلية البلاغة في كتب أبعد ما تكون عن تكوين الذوق البلاغي. فهل تعرف كيف تدرس البلاغة في الكليات التي تدرس البلاغة؟ الدراسة المثمرة هي أن تسبق أولا بمقدمة نفسية تنتظم دراسة القوى الإنسانية عامة وصلتها بالحياة الفنية والنشاط الوجداني، ثم العناية بدرس الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى في عمله الفني ودرس الخيال والذاكرة والإحساس والذوق ومعرفة أمهات الخوالج النفسية من حب وبغض وحزن وفرح وغضب وغيرة وانتقام وما إلى ذلك مما هو منبع المعاني الأدبية الكبرى في الآداب الإنسانية على اختلافها .. وعلى صاحب

الفن منتجا وناقدا أن يعرف آخر ما وصل إليه البحث النفسي . وقد أصبح التقسيم التقليدي للبلاغة إلى معاني . وبيان . وبديع . غير ذات موضوع في البحث البلاغي . . وصارت البلاغة تدرس على أنها وحدة متصلة تبدأ من البسيط إلى ما يليه . تبدأ من الكلمة الفردة فالجملة والفقرة فالقطعة الأدبية وهكذا يقوم النهج الفني البلاغي على أصول وأسس نفسية قبل كل شيء —

أين الأزهر — يا صديق — من هذه الأبحاث التي تملأ شعاب المعاهد والكليات التي تشعر أن لها رسالة انشائية ابداعيـة . .

فهل تنفذ هذه الصيحات إلى حيث نأمل ! هذا ما نرجو أن يكون

محمد عبد الحليم أبو زيد



أعاصير

للأستاذ أحمد عبد القادر الصاوي

خرجت إلى الطريق وفي رأسي معركة ومشيت ومشيت ، ولكنني كنت أمشي داخل نفسي ، وطالت الطريق . . ترامت أمامي وامتدت . . ترامت كما يتراءى الزمن ويمتد ، وصعدت فيها وهبطت . وحين تطلعت بعيني لأرى ما بقى ، رأيت أنه على مسافات . ومشيت ومشيت

وكان يخيل إلي أحيانا أنني لا أمشي ، بل أسبح

وصلت ، وقدماي تتخاذلان . وتواريت في حجرتي . وتهالكت إلى سرير نبت على جوانبه الشوك . وتلفت نحو نفسي المنهوكة أسألها العون . وقادتني إلى مستقبل عبوس . قطعة من ظلام دامس خضتها حائراً

وطاف بي أمسي نقلني إلى فترة باردة . وانسكب وجداني في أودية من الذهول . . عميقة مظلمة

ودققت في أمري . وا كتشفت أنني مريض برضاي . وفرحت جدا . . سأتخلص من الداء . بيد أنني فشلت تماما واستلقيت في أحضان أوهامي ، وسربما شملت كل أفكاري وأغمضت العينين . وإذا بي أتهادى وسط مواكب ومشاهد ، الذكريات مواكب ، والأحداث مشاهد . وتتابعت سلسلة من الصور طويلة جدا . وما برح الذهن يجذبها إليه ، فتطوى فيه طيا . وراح — وهو يستعرضها — ينمقها . . يشيد هذا الماضي الوارف . إن الماضي رونقا

واستيقظ على صوت يناديه إلى الطعام . قام مرتبكا . وألقى جسده على أقرب كرسي . ومد يدا فاترة . وسألوه :

— مالك ! — وأجاب — لاشيء

واستجمع همته ليسترد نشاطه المسلوب ، فتضاحك : — تعجلتم — بل تأخرنا كثيراً

وعلته دهشة ، لأنه غالبا ما كان يحتج على تأخر الغداء . وقيل له : — هل نعزمك ؟

وأكل أثقل طعام . وأوهم من حوله أنه امتلأ . تنهدت والدته وتعجبت أخته

وأقبل الأصيل . وهبت الريح شديدة عاتية . وعم لها عواء رهيبا . وتمضي فترة ثم تتكشف نسيما رقيقا . وتنفست بسمات خفيفة على كبدي . . أفرجت عنها قليلا أن دفعات ناعمة أهدت إليها أريج البنفسج . وتذوب فيه

وتفتحت نافذة أمام روحي . وأطلت منها على عالم جديد وتنبهت . . وعت وأرهفت لتستمتع بنظرة أو بضحكة أو بكلمة . وأني لها على البعد والنوى !

وعادت العاصفة

وتتابعت أفكار كثيرة مزعجة . وجرفته بين طياتها أمواج عالية . ورسب واختنق

وكانت وساوسه كزوبعة تهب فلا تبقى

وأظلته سحابة داكنة . ولا يملك فؤاده ، فتمتصه مجاهل ملتوية . . أشجانه وآماله

وظل يرقب نفسه حزينا وهي تتحلل وتتساقط . ورثى لها !

أشعة ساخنة تدفئ فى جوانحه . . تشيع فى أعماقه اللهب ما أحبه إليه لأنه يحيط قلبه بالدفء

وصورة أمام عينيه لا تنحرف عنهما . ما أكرمها عليه برغم حجابها الرؤية والمرئيات

أصبحت لا أرى . . أرى فقط جمالها وأنوثتها وفتنتها

أصبحت مجولا . . أود أن أثب من فوق الحوادث . . أسبقها ولا أطيق مكثا …

وأقود نفسى إلى منزلها وأشواق تحثنى . وأدعو قلبى إلى الصبر ، فلا يستجيب

وتشابكت السحب ، وراحت تزرف . وأحار تحت الدموع الغزيرة . وحولت خطاى إلى مسكنى

وفجأة صفت السماء . وانثنيت مرة أخرى إليها . وتألقت النجمة فى نافذتها كالماسة الكريمة . ونظرت ذاهلا ونظرت هى حزينة وخفق قلبى خفقة أحسست بعدها أنه يتصدع ويتداعى رباه ، أيلاق بعض الناس ما ألق ؟!

وانتزعت رجلى نحو العودة . انتزعتها نزعا

وتجمع الظلام على الدنيا . وتراكم على قلبى جبل حالك من الترهات

لوتستتر المرئيات . وتظهر صورتها لخيالى . وأشعر أن خدرا يسرى فى جسدى . أخيلة وخيمة تنثال إلى رأسى كأخيلة رجل تناول قدرا كبيرا من الخدر … وتضيق أنفاسى

وفتحت النوافذ والأبواب . ولكنها تتعقد فى صدرى واستقبلت السماء

ورأى القمر وحيدا حزينا . رأى كفجوة تخترق حائط الظلام الهائل . وجذبت نفسا طويلا . . لو استطعت كان أطول من الليل . ودخل الهواء الأسود رئتى

وبقيت فى النافذة ، والليل أمواج ساكنة …

وسمعت صوت أقدام ثقيلة وقورة . كان رجل الدولة يتولى حراستها ، ومر حوذى . خاطب خيله مدللا إياها ربما أفاد كثيرا ذلك المساء . وأدار عربته ليأوى

ويمر أحد السكارى . . يطلق مزعجاته . . أغان مخنوقة مبتورة وفاجأه الجندى . كف ! ومشى مستخذيا

أولئك جماعة مابعد الساعة الواحدة بعد نصف الليل . كلهم مرح . كلهم سعيد

والليل يزحف فوق صدرى كغمامة سوداء ، ليس لها نواح تدركها العين . وتحولت إلى البدر كالغريق . . . غريق لجة قاتمة

وبلاه ! اختفى ، وترك الدنيا . كانت متعلقة بأشعته ، فلما قبضها هوت فى بحر من الظلام

وأنظر من قاعه ، فيشاهد خيالى قمرا آخر . إنه يشرق من قلبى فيضئ حناياه . ويهتز الظلام . . يرتجف ويولى

وأشاهد نفسى طافيا فى بحيرة من الضوء . وأشاهد فتاة تسبح فى ذهنى ، وكلها مفاتن

… وجه كالزهرة الناضرة ، وقوام كالرمح المشوق ، وأنوثة تتألق وتزهو . وصوت كأصوات الملائكة . . رتيل ونغم

تلك فتاة جمعت فى نفسها حشدا من الحسن . . ستركع أمنع القلاع أمامه . . ستخر . ويل قلب غزاه . . سيزلزل . . سيهوى ويل عين رأت . لن تغفى . ستسهد

وأفتك ما فى الوجه عينان نفيتان على قلبى . تصبان عليه الوهج ناعما رقيقا . ما أبهجه !

وينصهر القلب تحت النظرات . . يترقرق ويسيل فى مسارب ضيقة معقدة . وبحثت عنه فأخفقت . . تشربته المسارب الضيقة . غرق فى أحزانه ! ويلى . ويله !

أيتها العينان ، ما بال ذبولكما يسرى إلى قلبى ؟ حسبت العين المريضة لا تمرض الأعين

أيتها العينان ، إذا تأملتكما أشرفت على قلب من النور

أيتها العينان ، أى صفاء يشتاه فى روحى ؟

أية مرآة أنتما أية صورة تعكسانها . أية صورة ترعرعت فيكما يا روحها ، أنت أنضر صورة وأجلها وفيها ؟!

إذا ما ارتسم فى ذهنى ، تخيلته يطبع عليه قبلة ، أشعر بعدها ببرودة رافية . وتقدمت بفمى أقتطفها . لم أصل !

إنى أفيد الخيال بالواقع ، فأنشئ قبلا ، لا تلبث فتنها — يا طالما تعلقت فى حبال من الخيال . ويا طالما تراخت الحبال ، وما أسرع أن تتراخى !

فمها وردة متوهجة . إذا تكلمت تفتحت . كثيرا ما تفتحت الوردة فعطرت الحياة حواليها

وأتصورها الآن تتفتح ، فأسمع تغريدة ترددها الوردة . . أسمع نبرات كلها موسيقى . كلمات موشاة منمقة مختصرة كخفقة الضوء ، ولكنها بليغة فى أوج البلاغة وذروتها

لو سمعتها وحدها حياتى كلها ، امر الله ، مقمت ولا مللت !
والجبين الوضاح . والشعر اللين . والقوام المعتدل ؟
أسنة مشرعة نحو صدرى
والليل متمدد على الدنيا كوحش خرافى لا يقف البصر على زواياه .. والسكون لا صور له .. موحش رهيب ..
وماتت الضوضاء
وتجمعت الحركات الساخنة فى رأسى . وتحولت فى تيار ساحق . وازدحمت فيه بضعة أسباب مائعة للغز الذى أقاسى من أجل حله
ويشب الجوى ، فيثير فى قلبى أحزانا . ويتحامل على ، فيجرد لى فيلقا من الشجن
ويتنقل اليأس فى نواحى الروح ، فيهوى بها إلى قرارة الجسد ، وتغيب فى ظلمات وأعاصير
ويتداعى الأمل . هل من بعث يعيد ما هلك فى الأركان المتهدمة ؟ أحاوله . . ألمس ثغرة يتنفس منها ، فأمشى نحوها . أو خيطا من نور يؤدى إليه ، فأتعلق به ! وعجزت جد العجز . .
ويئن فى قلبى الضيق . واستقر فى بدنى الملل . رحماك !
وتفتحت آذان السماء ، فرفرفت على عينى سنة قصيرة ، وانتبهت بعدها
تقضى الليل ، وآذن الفجر أن يولد . واستهل صراخ الوليد عن ضجيج الناس وحركتهم
واستيقظت الدنيا . واتسع الأفق وأضاء . وطلى الضوء كل شئ . . صبغه بلون الحياة والرضى والأمل . اللون البهيج
وآن لقلبى أن يتنهد بعد امتداد بكائه
وأتى إلى صباحا خطاب . وفضضته وتململت أمام عينى كتابتها . واتسعت حدقتها والتهمتا الكلمات حرفا حرفا
كل جملة تسكون معنى قائما
كل كلمة تبرز تعبيرات شتى . . تقل ضميرها ثم تطبعه على الورق ، فيكاد المداد الأسود يضئ
كل لفظ يستشف معه ضراوة البعد وصرامة الشوق ، واستبداد الألم
ويزدحم صدرى بالمعانى الواردة ويصيغ مادة من التأويل الفكك
والكتاب ، أوله حتى آخره صورة خلجات نفس هالعة ، والهلع موزع فى معانيه كلمة كلمة ، مرتسم عليها جملة جملة . وأول نظرة ألقيتها عليه أكدت أنه عمل روح جازع

ليس به تاريخ . ليس به عنوان ليس به إشارة إلى لقاء فأستقد وأضع لهذه البابلة حدا
وزاد الغموض ، أن بعض الكلمات أزيلت . لم يكتب شئ مكانها ، فارتبك بناء الجمل والمعانى . وتكبدت فى حل تلك الرموز البالية العناء
قالت : سأحضر ، انتظرنى !
وانتظرت حتى أودى الصبر . وانسلخت أربعة أسابيع وأيام . .
هل برت ؟ !
وأصحب قلبى بعد طول المهلة إلى نافذتها . وأظل تحتها ساعة أو ما يعادلها ، فلا أرى الطلعة السمحة
ضللت معها وأبعدت
أقدمت أسير فى صحراء قفراء . . أقطع الفيافى والمسافات ، فإذا تذكرتها ، وحللت من ذكراها فى واحة نائية
أقدمت على النار ، وأنا أعلم أنها ليست النور ولا الدفء
وأقدمت !.!

أحمد عبد القادر الصاوى

ترجمتان لقصة المعراج

بقية المنشور على صفحة ٧٧٠

وقد يتساءل الإنسان كذلك عن قيمة البحث الذى قام به المستشرق تشيرولى والإجابة عن ذلك أنه نجح كل النجاح فى إيضاح المسألة التى أثارها بلاثيوس ، كما أنه نجح فى وضع هذه المسألة على أساس أمتن من الأساس الذى وضعها عليه المستشرق الإسبانى

كذلك يمكن التساؤل عن موقف تشيرولى فى هذا الموضوع . . لقد كان المستشرق الإيطالى شديد الحذر عند الإشارة إلى تأثير هذه المعلومات الإسلامية على فكرة دانتى ؛ ولذلك اجتهد فى أن يثبت آراءه بأكثر مما يلزم من الأدلة وذكر أن من المحتمل كثيرا أن يكون دانتى قد تأثر بقصة المعراج بصفة عامة عندما خطرت بباله فكرة رحلته إلى الأقاليم الثلاثة ؛ ولكنه لم يصل إلى الجزم بأن الملحمة مأخوذة بتفاصيلها من قصة المعراج كما فعل بلاثيوس !

أمبرتو ريزيتانو